دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع

د. على السيد على

القدس في العصر المملوكى

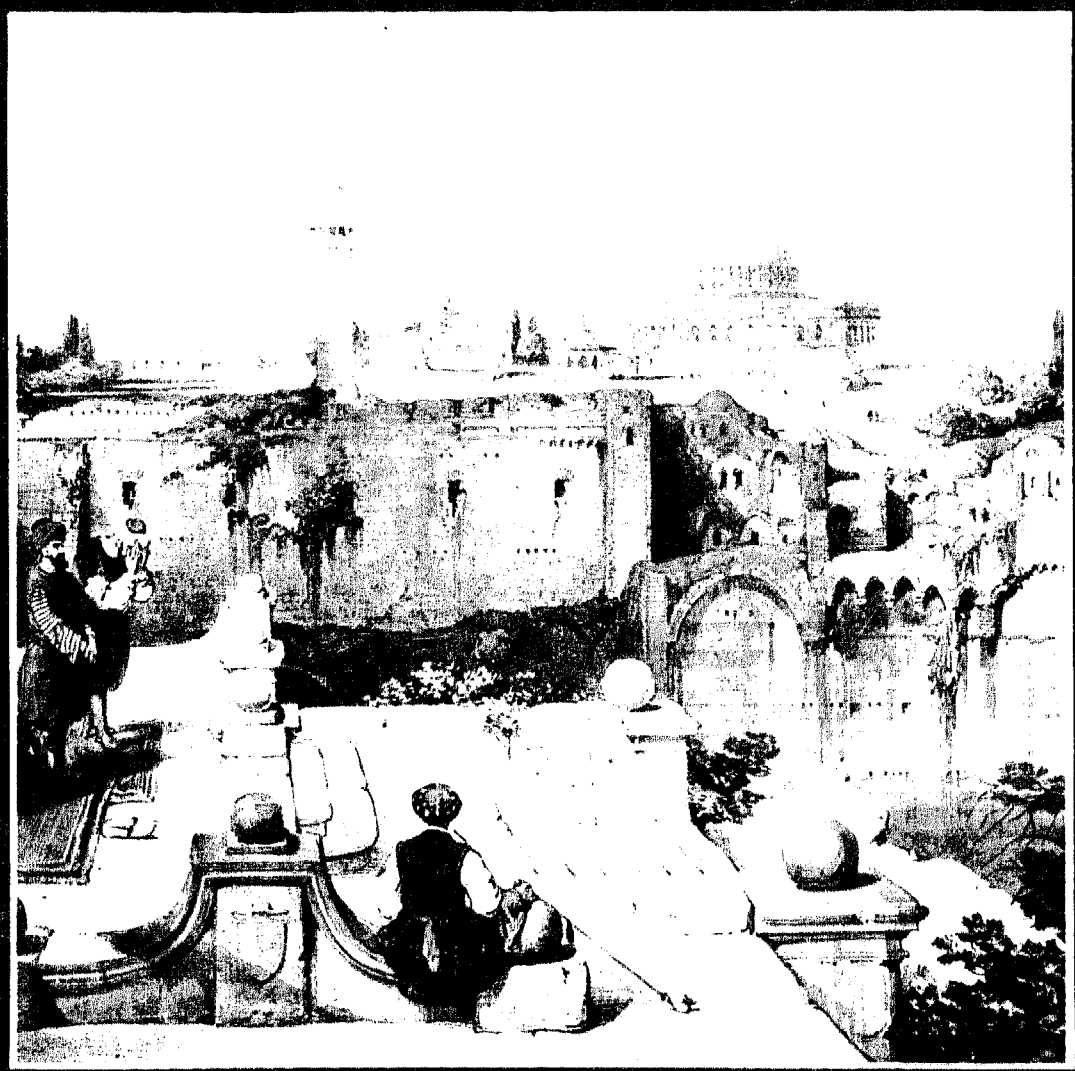

القدس
في العصر المملوكي

تصميم الغلاف والخطوط : عماد حليم

الطبعة الأولى
القاهرة - ١٩٨٦

جميع الحقوق محفوظة

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع
القاهرة - باريس

القاهرة : ش هشام لبيب - رقم ٤٢/٢٥
مدينة نصر - المنطقة الثامنة

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

القدس
في العصر المملوكي

د. علي السيد علي

تقديم

القدس ، ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من مدن الأرض ؛ ولكنها رمز دار من حوله الصراع على مدى أجيال عدة فى تاريخ المنطقة العربية .

والقدس اليوم رمز فى صراع جديد قديم بين القوى العربية فى المنطقة وقوى البغى والعدوان الآتية من خارج المنطقة تفرض منطق الاستيطان العنصرى المتسربل برداء الدين .

والقدس فى ماضينا القريب كانت رمزاً لصراع بين العرب والقوى الصليبية التى وفدت إلى المنطقة تزرع فيها كياناً دخيلاً ، فما أشبه اليوم بالبارحة !

والمثير للانتباه أن القدس كانت محور الدعوة الصليبية بالأمس ، كما هى محور الدعاوى الصهيونية اليوم . فقد جاء الصليبيون فى أخريات القرن الحادى عشر تحت راية الصليب بدعوى تحرير القدس من العرب المسلمين . وادعوا أن فلسطين أرض الميعاد وأنهم شعب الله المختار الذى اصطفاه للمهمة المقدسة لتحرير ضريح المسيح من المسلمين . ولا غرو فقد ورث المسيحيون العهد القديم (التوراة) بكل ما فيها . وها نحن اليوم نواجه العدوان الصهيونى / الأمريكى تحت الراية نفسها ، وفى ظل المزاعم ذاتها ، فالصهاينة يزعمون أنهم شعب الله المختار وأن القدس وفلسطين هى الأرض التى وعدهم الرب بها .

وفى غمار الهجمة الصليبية والعدوان الصهيونى على السواء ، ارتكب الأوربيون والأمريكيون – قديماً وحديثاً – أبشع صنوف الجرائم والمذابح وهم يرفعون راية الدين ويتمسحون فى القدس ... مدينة السلام . وبعد أن عرف العرب كيف يواجهون الهجمة الصليبية تحت راية واحدة ، نجحوا فى دحر العدوان الصليبى وقضوا على شراذم القادمين من الغرب الأوربى للاستيطان فى أرض العرب . ولن يستطيع العرب هزيمة الصهيونية وحلفائها من قوى العدوان الأوربية والأمريكية سوى حين يعرفون أن وحدتهم هى الطريق ..

وبينما كانت القدس رمزاً وستاراً للعدوان فى كل من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، كانت

المدينة المقدسة مركزاً للبناء ، وبؤرة حضارية وثقافية هامة فى الحضارة العربية الإسلامية .

لم تكن القدس بالنسبة للعرب مجرد مدينة على الخريطة ، وإنما كانت بالنسبة لهم أولى القبلتين وثالث الحرمين . ولم تكن القدس فى الحضارة العربية الإسلامية واجهة تخفى النوايا العدوانية ، والمقاصد الهمجية ، والأغراض الاستيطانية ، ولكنها كانت قِبلة للعلماء ، ومقصداً للدارسين ، ومناراً مرشداً لصناع الحضارة من كل مكان ..

فتحت القدس العربية قلبها واستقبلت الحجاج والزوار المسيحيين واليهود طوال عصورها العربية ، ولم ترد حاجاً أو تصد زائراً . وتفتحت عيون القدس العربية للعلوم والمعارف لرفعة بنى الإنسان ورقيهم فكانت مجمعاً للمدارس ومزاراً لكل راغب فى العلم والمعرفة ، وأثبتت القدس العربية على مدى التاريخ إنها مدينة السلام لكل بنى الإنسان .

ولم تعرف القدس التعصب سوى حين احتلها الصليبيون فطردوا منها المسلمين واليهود ، ومات التسامح فى بلد التسامح . وصارت وقفاً على المستوطن الغريب القادم من الغرب الأوربى . ولم تعرف القدس العنف والدمار سوى حين اقتحمها القادمون من أوربا ، واستشهد السلام فى مدينة السلام ، حين جرت سيوف الصليبيين بتلك المذبحة الرهيبة على المسالمين من سكان القدس ؛ مسلمين ويهوداً .

وعاد السلام لمدينة السلام حينما استعادها العرب تحت راية صلاح الدين ، وتدعم السلام حين تم طرد الصليبيين من فلسطين . وعادت مدينة الحب والتسامح تبنى الحضارة وتزرع الثقافة وتعلم الإنسان .

إلى أن كان زمن ردىء . تشرذم فيه العرب ، وتباغضوا ، وتنافروا فسقطت مدينة السلام فى أيدى أعداء السلام . ومرة أخرى عاد التعصب والرعب لمدينة التسامح والسلام ، وداست أقدام الصهاينة تراب المدينة المقدسة ولا تزال .

ولأن الحب والسلام والحق ينتصر دائماً فى النهاية ، فسوف تعود مدينة السلام إلى سابق سيرتها الأولى . ليس بالأمانى ، ولكن بتوحيد الجهد العربى وبمواصلة العمل والكفاح ضد عدونا الحقيقى فى الداخل والخارج .

■■■

والكتاب الذى بين أيدينا ، يقدم لنا صفحة من صفحات تاريخ مدينة بيت المقدس ؛ حافلة بالمعانى والدلالات الهامة . فهو كتاب يكشف عن القدس « المدينة الحضارة » . يكشف عن القدس العربية فى حياتها السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية ويرسم صورة حية لمدينة السلام فى حياتها اليومية فى حقبة غنية بالحركة من تاريخها الطويل الحافل .

هذا الكتاب الذى يحدثنا عن القدس فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ – ١٥١٧ م) يرسم لنا صورة متكاملة وحية عن المدينة المقدسة خلال ما يزيد عن قرنين ونصف قرن من الزمان . وهى

دراسة متكاملة تكشف عن مدى ازدهار القدس باعتبارها من مراكز الحركة الثقافية والسياسية الهامة فى ذلك الزمان من ناحية ، كما يوضح ، من ناحية ثانية ، كيف أن الحضارة العربية استخدمت المدينة المقدسة لبناء الحضارة والسلام ، ولم تتخذها ستاراً للعدوان وواجهة للاستيطان مثلما فعل الصليبيون بالأمس وعلى نحو ما يفعل صهاينة اليوم .

والكتاب أطروحة تقدم بها الدكتور على السيد على لنيل درجة الدكتوراة من قسم التاريخ بآداب الزقازيق . واختار المؤلف أن تكون مدينة بيت المقدس محوراً لدراسته التى استهدفت توضيح حقيقة الدور الحضارى للمدينة المقدسة فى إطار الحضارة العربية الإسلامية . وقد اتبع منهجاً تحليلياً يقوم على أساس موضوعى يعالج كل فصل على حدة فى إطار الدراسة كلها . ولم ينزلق إلى منهج السرد التاريخى الكرونولوجى الذى يقوم على أساس ترتيب الحوادث فى سياقها الزمنى وحسب .

ولكن أهم ما يطرحه الكتاب فى تصورى ، هو أنه يكشف للعرب – قبل غيرهم – أن المدينة المقدسة ليست بالنسبة لحضارتنا وماضينا وحاضرنا مجرد مدينة احتلها العدو ، وإنما هى قطعة حية من تاريخنا ، ومعرض حى لإنجازات الحضارة العربية الإسلامية . ولست أعتقد أننى قادر على تقديم صورة متكاملة لجهد استغرق عدة سنوات من الدكتور على السيد على ، ولذا فإن الأفضل أن أترك للقارىء مهمة كشف جوانب هذه الصورة بنفسه .

د . قاسم عبده قاسم
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
آداب الزقازيق

مقدمة المؤلف

لعله ليس من بين بلدان الدنيا بلد يحق لها أن تفاخر غيرها بما حوته من مقدسات كمدينة بيت المقدس ، فهي موطن كثير من الأنبياء والرسل . يقول عنها القزويني « وهي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي .. وما فيه من موضع شبر إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك ..[1] » كذلك يروى لنا ابن الجوزي أن الكثير من المحدثين يجمعون على أن الله عز وجل منذ خلق آدم إلى الدنيا لم يبعث نبياً إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس ، وقد صلى إليها نبينا ﷺ[2] . لذا فهي مهوى أفئدة المسلمين وقرة أعينهم ، هذه المدينة التي يقدسها المسلمون مقدسة أيضاً عند المسيحيين .

ففيها كثير من الأماكن المقدسة التي ترتبط بتراث المسيحيين مثل كنيسة القيامة ، حيث يحج إليها المسيحيون من مختلف الأقطار ، وبها كنيسة صهيون التي يقال أن المائدة نزلت على سيدنا عيسى عليه السلام والحواريين بها ، بل إن المسيحيين الغربيين كانوا يعتقدون في العصور الوسطى بوجه خاص أن زيارة بعض الأماكن بها قد تهب التحلل والتوبة من الذنوب[3] .

وما زال اليهود يزعمون نسبة بعض الأماكن بها إلى كثير من أجدادهم الأول . وحسب هذه المدينة أن اجتمعت فيها مقدسات الأديان السماوية الثلاثة ، وشهدت أرضها آثاراً لموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه ، الأمر الذي جعل هذه المدينة تحظى بعناية بعض الكُتاب والمؤرخين ، لدرجة أن ما كتب عنها من الفضائل يفوق ما كُتب عن غيرها من المدن الأخرى .

وهكذا حظت مدينة بيت المقدس بمكانة خاصة في جميع أنحاء العالم قديمه وحديثه بالرغم من أنه ليس لها كثير من الخواص الطبيعية التي تحالف المدن الكبرى ، فهي لا تقع على مجرى مائي عظيم ، ولا هي ميناء ، ولا هي واقعة على طريق رئيسي أو عند ملتقى عدة طرق ، كما أن أراضيها بركانية فلا

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٠ ص ١٥٩ - ١٦٠

(٢) فضائل القدس ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ١١٤

(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د . السيد الباز العريني بيروت ١٩٦٩ جـ ١ ، ص ٧١

يصلح الكثير منها للزراعة التى كانت عنصراً رئيسياً فى قيام كثير من الحضارات القديمة . ومع هذا فهى تعتبر من قديم الزمان ذات مركز دينى أكثر منها ذات وضع سياسى .

ومع انتشار المسيحية والاعتراف بها فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، صار فى وسع المسيحيين فى مختلف الأقطار أن يرتحلوا إلى الأرض المقدسة وأضحى من شعائرهم الدينية زيارة بيت المقدس من أجل العبادة والعظة والعبرة ، وهكذا حتى ازداد نفوذ الكنيسة الغربية وعندئذ حرصت على فرض سيطرتها على تلك الأماكن المقدسة ، وعلى ضم أبناء الكنيسة الشرقية لنفوذها ، واتخذت من الحروب الصليبية وسيلة لتحقيق أطماعها هذه ، حتى تم استيلاء الصليبيين على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م وظلت تحت حكم الصليبيين حتى استردها السلطان صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م عقب معركة حطين الشهيرة .

وبعودة المدينة إلى الحظيرة الإسلامية عقب الفتح الصلاحى لها ، وبتوقيع معاهدة الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عام ١١٩١ م ، ساد المدينة نوع من الاستقرار النسبى ، لكن هذا الاستقرار لم يتم له الدوام فى عهد خلفاء صلاح الدين من بنى أيوب ، وبخاصة من أبناء الملك العادل الأيوبى ، مما ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة لمدينة بيت المقدس بحيث غدت كالكرة تتلاقفها أيدى المسلمين تارة ، وأيدى الصليبيين تارة أخرى .

ومع قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر فى منتصف القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، تعرضت بلاد الشام لخطر الغزو المغولى ، وما تلا ذلك من انتصارات المماليك على المغول فى عين جالوت ١٢٦٠ م ، مما أدى إلى إنقاذ بيت المقدس من براثن هؤلاء الغزاة الوثنيين ، وبذلك نجت المدينة من التخريب والإحراق وانتهاك مقدسات الإسلام والمسلمين .

ومهما يكن من أمر فإن ظهور المماليك على مسرح الأحداث السياسية فى تلك الفترة ، وما ترتب عليها من قيام دولتهم بالدفاع عن الكيان الإسلامى ضد الخطر المغولى والخطر الصليبى ، فضلاً عما أحاط بظروف نشأة هؤلاء المماليك وما لمسوه من نظرة المعاصرين لهم بسبب أصلهم غير الحر ، إلى جانب أنهم اغتصبوا الحكم من سادتهم بنى أيوب ، مما كان له أكبر الأثر فى رسم سياسة المماليك ، تلك السياسة التى انعكست آثارها على أوضاع مدينة بيت المقدس ممثلة فى شقيها الحربى والدينى . وعلى هذا الأساس يمكننا القول إن عصر سلاطين المماليك يمثل مرحلة جديدة تماماً فى تاريخ مدينة بيت المقدس ، لها طابعها الخاص الذى يتصف بالأمن والاستقرار ، وهو ما لم يتوفر للمدينة فى العهد الأيوبى ، فضلاً عن الثراء والازدهار ، مما جعل من المدينة مرة أخرى عنصراً إيجابياً وفعالا فى الحياة الإسلامية .

والله أسأل أن أكون قد وفقت فى إبراز بعض مظاهر الحياة فى مدينة من أكثر المدن قدسية فى عصر سلاطين المماليك والله ولى التوفيق .

دراسة المصادر الخاصة بهذا البحث

تتناول هذه الدراسة بعض المصادر التى تحدثت عن مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك . وحسب هذه المدينة أن اجتمعت فيها مقدسات الأديان السماوية الثلاثة ، مما جعلها تحظى بعناية كثير من الكُتاب والمؤرخين ، كذلك كانت لها جاذبيتها الخاصة عند مثقفى ذلك الزمان ، كما كان لها عشاقها الكثيرون وخاصة بعد تلك الغيبة الطويلة التى انتزعت فيها من بين أحضان الدولة الإسلامية الأم فترة الحكم الصليبى التى قاربت مائة عام . أضف إلى ذلك أن أحوال العالم الإسلامى المتدهورة فى المشرق والمغرب ، نتيجة لاستيلاء المغول على بلاد ماوراء النهر والعراق وإيران ؛ ولحركة الاسترداد التى شنتها القوى المسيحية ضد مسلمى الأندلس ، مما شجع الكثير من العلماء على الهجرة إليها والاستقرار بها كواحدة من الحواضر العربية الإسلامية المزدهرة فى عصر سلاطين المماليك ، تلك الحواضر التى غدت بمثابة الحصن الأخير للحضارة العربية الإسلامية ؛ بحيث تجمع فيها العلماء من شتى البلدان ، مثل العراق ، وإيران ، وتركستان ، وبلخ وشيراز ، واذربيجان ، وهراة وقرمان ، والمغرب والأندلس ، واليمن ؛ بل إن الكثيرين من كبار العلماء فى العصر المملوكى فضلوا الإقامة بها على غيرها من حواضر الدولة المملوكية .

ولقد ارتأيت فى كتابة هذه الدراسة طريقة الالتزام بما توفر لدىّ من معلومات ، والاعتماد عليها اعتمادا مباشراً فى تدوين تاريخ مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر وهو عصر سلاطين المماليك ؛ ذلك لأن العودة إلى ينابيع التراث ضرورة تفرضها هموم اليوم فى محاولة لتأصيلها ، دون أن تكون هذه العودة شغفاً بهذا الماضى المجيد ، بل وعياً به وشحذا لعواطف وإثارة لنفوس دب فيها اليأس – ولو إلى حين – فى مواجهة عدو عنصرى لا يرحم ، ولا يستحى فى السطو على تاريخ أمتنا العربية ، واستجلابه تاريخا كاذباً يدعم به سيطرته وهيمنته على أرضنا العربية فى فلسطين وفى قلبها القدس الشريف . ولأن دور التاريخ دور بارز فى إنهاض الأمم وتذكيرها بماضيها وتبصيرها بحاضرها لأنه سجل الحياة ، يحكى قصتها ، ويصور صراعها الدائم فى سبيل الكمال ، ويقص تجربتها ، وما انطوت عليه أعمالها من خطأ وصواب ، رائده تقصى الحقيقة فى كل ما يصدر ويقول ، لذا سنلجأ للتاريخ

لكى يصور لنا جوانب الحياة المختلفة فى مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك .

والحقيقة أن التراث التاريخى فيما يتعلق ببيت المقدس يضم العديد من المؤلفات فى شتى مجالات المعرفة وأنواع العلوم ، وفى بحثنا هذا عن بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك اعتمدنا على أكثر من خمسين من المصادر العربية منها المخطوط ومنها المطبوع ، بخلاف العديد من المصادر الأجنبية المسيحية واليهودية منها ؛ بالإضافة إلى كثير من المراجع الحديثة العربية والأجنبية ، والتى تضمنتها القائمة الخاصة بمصادر ومراجع البحث الملحقة بآخر هذا البحث . ولقد وجدنا أن من العسير أن نتناول بالتحليل كل مصدر من هذه المصادر المختلفة مراعاة لطبيعة البحث ، وعلى هذا الأساس قسمنا هذه المصادر إلى مجموعات مختلفة ، منها بعض الوثائق التى تعنى بمجتمع بيت المقدس فى تلك الفترة ، والتى تصور العديد من جوانب حياته ؛ ثم تأتى بعد ذلك مجموعة المصادر التى تتحدث عن جانب واحد من جوانب الحياة مثل الجانب الاقتصادى ، ثم المصادر التى خصصها مؤلفوها للحديث عن عصر من العصور التاريخية أو أسرة حاكمة ، مثل العصر الأيوبى والعصر المملوكى ، ثم المؤلفات الشاملة التى تتحدث عن العديد من أنواع المعارف الموسوعية ، تليها المؤلفات التى تختص بالتاريخ المحلى للمدينة فقط ، ثم الحوليات التاريخية العامة والتى جاء بها ذكر المدينة بشكل عارض أو خصص مؤلفوها جزءاً من حديثهم للمدينة ، وأخيراً تأتى مجموعة الرحلات . وعلى أساس هذا التقسيم سوف نورد بعض الأمثلة لكل نوع من أنواع هذه المصادر .

والحقيقة أن الاطلاع على الوثائق يبدو على جانب كبير من الأهمية ، وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن المصادر التقليدية من مخطوطات وكتب مطبوعة ، لم تعد كافية للبحوث الحديثة ، ذلك لأن الاطلاع على الوثائق يضيف إضافات متميزة إلى ما ورد فى تلك المصادر التقليدية ، وبخاصة فيما يتعلق بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . ويهمنا أن نشير إلى أن من بين هذه الوثائق التى اطلعنا عليها تلك الحجة الشرعية الخاصة بالأوقاف التى أوقفها السلطان الأشرف قايتباى على مدرسته بالقدس والجامع بغزة ، وهى محفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٧ ، والمؤرخة بتاريخ الحادى والعشرين من شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثمانمائة للهجرة . وترجع أهميتها إلى أنها بعد أن عينت حدود المدرسة الأشرفية بالقدس ، وذكرت الأوقاف التى حبسها السلطان عليها ، نراها توضح بعد ذلك الوظائف المختلفة الخاصة بتلك المدرسة ، ومرتب كل منها بالدراهم فى الشهر . فضلاً عن أن وثيقة الوقف هذه كانت بمثابة اللائحة التنفيذية والأساسية ، والتى تضم الأسس التى يجب أن تراعى فى العملية التعليمية ، والشروط الواجب توافرها فى القائمين عليها .

وإذا كانت وثيقة المدرسة الأشرفية تعتبر الوحيدة التى تنص بالكامل على منشآت أقامها أحد السلاطين المماليك بفلسطين ، فإن بين أيدينا الآن وقفية الأمير سيف الدين تنكز أحد كبار أمراء المماليك ، والذى تولى نيابة السلطنة بدمشق فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فى الفترة من سنة ٧٢١ هـ إلى ٧٤٠ هـ . وتقدم وقفية الأمير سيف الدين تنكز معلومات هامة عن بعض المنشآت الدينية والخيرية والاجتماعية التى أقامها فى القدس وفلسطين ، منها المدرسة التنكزية بالقدس

الشريف ، ورباط للصوفية ، وحمامان هما المعروفان الآن بحمام العين وحمام الشفا فى سوق القطّانين بالقدس ، وكذلك المطهرة أو المتوضأ وغيرها من المنشآت الأخرى . وجدير بالذكر أن هذه الوثيقة بعد وصفها لتلك الأوقاف ، تتحدث بالتفصيل عن المدرسة وأقسامها وصفة العاملين بها والشروط الواجب توافرها فيهم ، كما تحدد لنا واجبات كل منهم ، بالإضافة إلى المبالغ التى كانت تصرف لهم ، وكذلك المبالغ التى كانت تصرف لضيافة الصوفية من الرجال والنساء ، إلى جانب غير ذلك من المعلومات التى تهم الباحثين فى تاريخ بيت المقدس فى ذلك العصر .

وتجب الإشارة إلى أن الأستاذ الدكتور كامل جميل العسلى قد قام بنشر هذه الوثيقة ضمن مجموعة من الوثائق الأخرى فى المجلد الأول من كتابه بعنوان « وثائق مقدسية تاريخية » ، ولا يفوتنى أن أتوجه لسيادته بجزيل شكرى لتفضله بإهدائى نسخة منه فور اتصالى به لهذا الغرض ، هذا إلى جانب العديد من الوثائق التى قام الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية بنشرها فى حولية كلية الآداب فى عددها السادس عام ١٩٨٥ م ، وهى من وثائق الحرم القدسى الشريف ، والتى نأمل أن تتاح الفرصة لكل الباحثين فى التاريخ للاطلاع عليها .

ومن المصادر التى تخصصت فى دراسة جانب واحد من جوانب المعرفة يأتى كتاب « نزهة النفوس فى بيان التعامل بالفلوس » ، لمؤلفه عالم الرياضيات شيخ الإسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد المشهور بابن الهائم « ت ٨١٥ هـ/ ١٤١٢ م » . وله العديد من المؤلفات فى علوم الحساب والجبر والمقابلة والهيئة وغيرها من العلوم ، لكن مؤلفه هذا قد أمدنا بكثير من المعلومات عن الحياة الاقتصادية فى القدس ، وبخاصة المعاملات المالية المختلفة التى كانت مستخدمة فى المدينة آنذاك ، وما طرأ عليها من تعديل ، وما تبع ذلك من اضطراب فى الأحوال الاقتصادية نتيجة للتضارب فى قيمة النقد المستخدم عندئذ ، مما دعاه إلى كتابة تلك المخطوطة ، لكى يستعين بها كل من يهمه الأمر فى عقود البيع والشراء ، وفى المعاملات اليومية ، وكذلك فى شروط الأوقاف وعقود الزواج ، وكيفية حساب الزكاة من الذهب والفضة . وقد عاش هذا المؤلف بنفسه فى مدينة القدس منذ عام ٧٩١ هـ ، وقام بتأليف هذه المخطوطة فى القدس عام ٨٠٣ هـ ، وتقع فى إحدى وستين صفحة من ذات القطع المتوسط ، قسمها إلى خمسة أبواب ، وهى موجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٨٧١ .

كذلك له مخطوطة أخرى تحت اسم « المناسخات » ، يتحدث فيها عن كيفية توزيع التركات ، والفصل بين الورثة وخاصة إذا تعددت مصادر إرثهم ، ويعتبر ابن الهائم من الرواد فى هذا المجال ، إذ يذكر أنه تعلم هذا الفن من أستاذه أبى الحسن الحلاوى رحمه الله ، ولم ير ذلك مسطوراً فى مصنف من قبل ، وقد أوضح فيه لطلبته كيفية الفصل فى المشكلات التى تعترضهم باستخدام الجداول الرياضية ، حيث عرض لهم عدة جداول لحالات مختلفة من الأشخاص الذين اختلفت مصادر إرثهم وتضاربت ، وقام بحل تلك الحالات باستخدامه للجداول المختلفة التى أوردها . والمخطوطة تتكون من عشرين ورقة ذات القطع المتوسط ، وفى كل ورقة منها سجل العديد من الجداول الرياضية المختلفة

التى يمكن الاستعانة بها فى هذا الغرض ؛ وهى محفوظة أيضاً بدار الكتب المصرية تحت رقم ب ٢٣٢٠٥ ؛ وهى إن دلت على شيء فإنما تدل على أن ذلك العصر لم يكن كما يصفه البعض من أنه كان عصر جمود فكرى ، اقتصر فيه جهد العلماء على مجرد النقل أو الشرح أو التلخيص ، بل هو عصر ابتكار ونبوغ فكرى . ويندرج تحت هذا النوع من المصادر كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لموفق الدين أبى العباس أحمد بن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ .

ومن المصادر التى اهتمت بالحديث عن فترة زمنية موحدة أو أسرة حاكمة يأتى كتاب « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لمؤلفه ابن واصل « جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ » ، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن مؤلفه كان معاصراً لكثير من الأحداث ، وبخاصة ما ساد أبناء البيت الأيوبى من خلافات ووحشة وعداء وحروب ، وما كان من أثر تلك الأحداث على أوضاع بيت المقدس والمسلمين بها ، وهو فى روايته لتلك الأحداث يرويها كشاهد عيان ، فضلاً عن أنه فى بعض المعلومات التى ذكرها ولم يشهدها بنفسه يروى أنه سمعها من رجال مسئولين ممن يحتلون مكانة خاصة فى العصر الأيوبى ، هذا فضلاً عن كبار القضاة والعلماء والمعاصرين الذين جالسهم واستمد منهم معلوماته . وهو كتاب لا غنى عنه فى التاريخ بصفة خاصة لأحوال بيت المقدس عقب الفتح الصلاحى لها ، وهو من كتب التاريخ التى خصصها مؤلفوها للحديث عن أسرة صلاح الدين الأيوبى ، وكيفية وصوله للحكم وتكوينه دولة موحدة مترامية الأطراف ، واتخاذه من الجهاد وسيلة لتدعيم الأساس الذى قامت عليه دولته لمواجهة أخطر أعداء الإسلام والمسلمين وهم الصليبيون ، ومن خلال سياسة الجهاد يذكر حروب صلاح الدين ضد الصليبيين ، ومعركة حطين واسترداد بيت المقدس ، ثم العناية بها وإقامة كثير من المؤسسات الدينية والخيرية والاجتماعية بها ، وتحصينها . ثم يذكر طوائف السكان بها ، وكيف أن السلطان صلاح الدين الذى عرف بسماحته وعدم تعصبه سمح لليهود بسكنى المدينة بل وفلسطين بعد أن خلت منهم فى فترة الحكم الصليبى ، كما سمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة .

ويندرج تحت هذا النوع من المؤلفات كتب كل من : العماد الأصفهانى « ت ٥٩٧ هـ » وهى « سنا البرق الشامى » و « الفتح القسى فى الفتح القدسى » ؛ وابن شداد ت ٦٣٢ هـ « كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، وأبو شامة ت ٦٦٥ هـ « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » و « الذيل على الروضتين » ، وابن عبد الظاهر ت ٦٩٢ هـ « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر » ، « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » ، وابن أيبك الدوادارى ت ٧٣٤ هـ « الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية » ، « الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر » ، وابن حبيب ، الحسن بن عمر ت ٧٧٩ هـ « تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه » ، والمقريزى ، أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ « كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك » ، وابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ « إنباء الغمر بأنباء العمر » و « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، والبدر العينى ت ٨٥٥ هـ « السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد » ، وابن تغرى بردى ت ٨٧٤ هـ « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، وابن طولون الصالحى ت ٩٥٣ هـ « إعلام الورى بمن

ولى نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى » و « مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان » ، وغيرها من المصادر العديدة .

وكنموذج للمؤلفات الشاملة يأتى « كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لمؤلفه ابن فضل الله العمرى ، شهاب الدين أحمد القدسى الأصل ، كاتب السر بالديار المصرية (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م) . وترجع أهمية هذا المصدر إلى أنه شمل معارف وعلوماً عديدة ، مع أن عنوانه يعطى انطباعاً بأنه من كتب الجغرافية ، إلا أنه يعتبر بحق موسوعة علمية ، إذ يشتمل على معلومات فى الأدب والديانات والتاريخ والآثار ، فضلاً عن المعلومات الوافرة المتعلقة بالحياة الاجتماعية ، والأقليات الدينية ، وعلاقتها الرسمية بالدولة . وعلى عادة كُتاب تلك العصور نجد العلوم تمتزج بالآداب . ومن الواضح أن موقع ابن فضل الله العمرى كواحد من رجال الإدارة فى العصر المملوكى ، وعمله فى ديوان الإنشاء هو الذى حدا به إلى اختيار الموضوعات التى عالجها فى هذه الموسوعة التاريخية الجغرافية الأدبية ، لكى تكون مرجعاً عاماً لمن يشتغل بالكتابة فى ديوان الدولة المملوكية . ولقد أمدنا الكتاب بكثير من المعلومات ، حيث تطرق فيه لذكر مدينة بيت المقدس ضمن فصل عنوانه : « باب عن مملكة مصر والشام والحجاز » ، وقد أفدنا من كتاباته فى مجال اهتمام سلاطين وأمراء المماليك بالمدينة ، كما ذكر معلومات هامة عن جغرافية المدينة ومدارسها وأربطتها وحماماتها وموارد المياه فيها .

ويندرج تحت هذا النوع من المؤلفات أيضاً كتاب « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » لمؤلفه أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ت ٨٢١ هـ . وكذلك كتاب ابن شاهين ، غرس الدين خليل ت ٨٧٣ هـ « كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » . وياقوت الحموى ت ٦٢٦ هـ « معجم البلدان » .

كذلك يأتى كتاب « الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل » كمثال لكتب التراث التى تخصصت فى التاريخ المحلى أو فى الحديث عن مدينة بعينها ، ومؤلفه هو مجير الدين الحنبلى ت ٩٢٨ هـ ، أحد أبناء بيت المقدس ، وكان معاصراً للفترة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك ، وتميزت كتاباته بعدم التصنع ، ونعنى بذلك أنه لم يكتب هذا التاريخ حباً فى استجلاب الرضا عند سلطان أو أمير ، كما لم تكن كتاباته ذيولاً وتكملات لكتب سبقته زمنياً ، حيث يذكر فى مقدمة كتابه هذا ، الأسباب التى دفعته لتأليفه هذا الكتاب بقوله : « وإنما دعانى لذلك أن غالب بلاد الإسلام قد اعتنى بها الحفاظ وكتبوا ما يتعلق بتاريخها مما يفيد أخبارها الواقعة من الزمن السابق ..... ورأيت الأنفس متشوقة إلى شىء من هذا النمط الذى قصدت فعله ..... » . ويعتبر كتابه هذا موسوعة تاريخية لمدينتى بيت المقدس والخليل ، ضمت التاريخ والسير ، والعلم والأدب والمقدسات فى العصرين الأيوبى والمملوكى . وفى مجال الحياة الاقتصادية فقد أمدنا بمعلومات قيمة عن الأسواق والخانات والقياسر ، وما كان يحدث من اضطراب فى الحياة الاقتصادية وأسبابه ، إلى جانب التركيبة السكانية والطوائف المختلفة بها ، والعلاقات بينها . كما تجب الإشارة إلى أنه كان معاصراً للسلطان الأشرف قايتباى ، وذكر لنا الأحداث التى وقعت لنا فى فترة حكمه ابتداء من سنة

٨٧٢ هـ إلى سنة ٩٠٠ هـ كشاهد عيان ، وبذلك انفرد بذكره لكثير من المعلومات عن هذه الفترة فيما يختص ببيت المقدس ، وقد أوردنا كثيراً منها فى بحثنا هذا .

ويندرج كتاب الواسطى ، أبو بكر محمد بن أحمد من علماء القرن الخامس الهجرى « فضائل بيت المقدس » تحت هذا النوع من المصادر ، كذلك كتاب الشيخ أبى فرج ابن الجوزى ت ٥٩٧ هـ « فضائل القدس » ، وابن سرور المقدسى ت ٧٦٥ هـ « مثير الغرام بفضائل القدس والشام » .

ومن أمثلة الحوليات التاريخية العامة المطبوعة يأتى كتاب « الكامل فى التاريخ » لمؤلفه ابن الأثير ، الشيخ عز الدين أبى الحسن على ت ٦٣٠ هـ ، والذى يقع فى اثنى عشر جزءاً ، اعتمدنا فيها على الجزءين الحادى عشر والثانى عشر . وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة لهذا البحث فى أن مؤلفه كان معاصراً لفتح السلطان صلاح الدين الأيوبى لمدينة بيت المقدس ، وأنه وإن أورد بعض المعلومات المبسطة خلال ذكره للفتح إلا أننا قد أفدنا منها كثيراً ، وبخاصة فى حديثه عن الطوائف المسيحية المحلية فى المدينة واستقرارهم بها عقب الفتح ، وكذلك فى حديثه عن اهتمام السلطان صلاح الدين بالمدينة وإقامته لكثير من المنشآت بها عقب الفتح ، وتقويته لأسوارها لتحصينها فى مواجهة الخطر الصليبى ، إلا أنه يؤخذ عليه أنه أوجز بشكل ملحوظ فيما كان ينبغى فيه الإطالة ، وهذا راجع إلى حقد ابن الأثير على صلاح الدين باعتبار أنه سلب السلاجقة ملكهم ، وهم الذين يدين لهم ابن الأثير بالولاء .

ويندرج تحت هذا النمط كتاب « المختصر فى أخبار البشر » و « تاريخ أبى الفدا » للمؤلف أبى الفدا ، الملك المؤيد اسماعيل الذى توفى سنة ٧٣٢ هـ . وكذلك كتاب « البداية والنهاية فى التاريخ » لابن كثير الذى توفى سنة ٧٧٤ هـ ، كذلك كتاب « تاريخ ابن خلدون » لمؤلفه ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد الذى توفى سنة ٨٠٨ هـ .

وأخيراً تأتى كتب الرحالة والحجاج المسيحيين واليهود ، التى دونوها عند زيارتهم لبيت المقدس . فقد كتب بعضهم ذاكراً ما شاهده فى المدينة من عمران ، كما وصف الحياة الاجتماعية فيها ، والعلاقات بين مختلف الطوائف الدينية بها ، بالإضافة إلى جغرافية المدينة . وإلى هذا الصنف من المصادر يرجع الفضل فى ذكر أكثر ما يتعلق بالحياة الدينية والاجتماعية التى كان يحياها كل من اليهود والنصارى ، وتزيد قيمة هذه المصادر عندما نعلم أن المصادر العربية لم تهتم فى غالب الأحيان بذكر نشاط غير المسلمين فى القدس .

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن أجهزة الدعاية الصهيونية حاولت وتحاول عن طريق التشويه المستمر للتاريخ العربى ، أن تختلق دوراً تاريخياً لجماعة اليهود التى استقرت فى المدينة عقب الفتح الصلاحى ، لذلك فقد أعطينا ما أورده الرحالة اليهود الذين زاروا بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك عناية خاصة ، أمثال الرحالة اليهودى « نحمانيدس » الذى زارها سنة ١٢٦٧ م ، وكذلك الرحالة « موشلام الفولتيرى » الذى زارها سنة ١٤٨١ م ، وكذلك الرحالة « عوبديا » الذى زارها سنة

١٤٨٨ م ، واتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك عدم صحة تلك المزاعم ، مع رسم صورة واقعية لوضعهم الحقيقى بلا أى تعصب أو تحيز يتنافى مع المنطق والتاريخ .

ومن بين كتب الرحالة الأجانب اخترنا كتاب الرحالة « بركارد » Burchard of Mount Sion الذى وصل إلى الشرق سنة ١٢٣٢ م ، وعاش فترة فى بيت المقدس ، حيث يقال أنه قضى عشر سنوات فى جبل صهيون . ويمتاز كتابه بعنايته بالآثار ، ودقة وصفه لطبوغرافية المدينة ، وقد ترجم كتابه من اللغة اللاتينية إلى الانجليزية عام ١٨٩٦ م تحت عنوان : A Description of the Holy land.

كذلك من كتب الرحالة الهامة يأتى كتاب « جوسى وفريسكو بالدى » الذى نشر تحت اسم A visit to the Holy Places ، وقد تمت هذه الزيارة عام ١٣٨٤ م ، وتضمنت الكثير من المعلومات التى لفتت أنظار الرحالة لعدم رؤيتها فى الغرب ، وهى معلومات تهم كل الباحثين فى تاريخ فلسطين بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات على جانب كبير من الأهمية عن المعاملات المالية ، وتكاليف الرحلة إلى بيت المقدس ، والمبالغ التى كان يتم دفعها عند زيارة كل مكان من الأماكن المقدسة المسيحية ، إلى جانب أسعار بعض السلع ، فضلاً عن الطوائف المسيحية المختلفة التى وجدت فى القدس فى ذلك العصر .

كذلك تأتى رحلة « فيلكس فابرى » ، الذى زار بيت المقدس مرتين عام ١٤٨٠ م ، ١٤٨٣ م ، وفى زيارته الثانية عاش فترة فى المدينة ، مشاهداً فيها لكثير من معالمها ، وقد دون ملاحظات قيمة عن الحياة التعليمية لدى المسلمين ، والطوائف المسيحية بالمدينة وبخاصة طائفة الرهبان الفرنسيسكان ، وكذلك تحدث كثيراً عن اليهود ، فضلاً عن أنه ذكر كثيراً من المعلومات عن الحياة الاقتصادية فى ذلك العصر ، وما كان يقوم الحجاج المسيحيون بشرائه من أسواق المدينة فى رحلة العودة إلى الغرب الأوربى ، أو عند استعدادهم للتوجه لزيارة دير سانت كاترين ، كما أمدنا بصورة واقعية وحية عن الأماكن المسيحية المقدسة فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ، وعن حياة البدو وأحوالهم الاقتصادية ، كما تحدث عن العلاقة بين الحكام المسلمين وأبناء الطوائف المسيحية .

كانت هذه إشارة لبعض نماذج للمصادر التى اعتمدنا عليها فى دراستنا للجوانب المختلفة لهذا البحث ، إلا أن القارىء لهذا البحث سيجد العديد من المصادر الهامة ، والتى تلقى كثيراً من الضوء على شتى جوانب الحياة فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والله أسأل أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه وهو نعم العون ونعم النصير .

د . على السيد على

الفصل الأول

الحياة السياسية في مدينة بيت المقدس

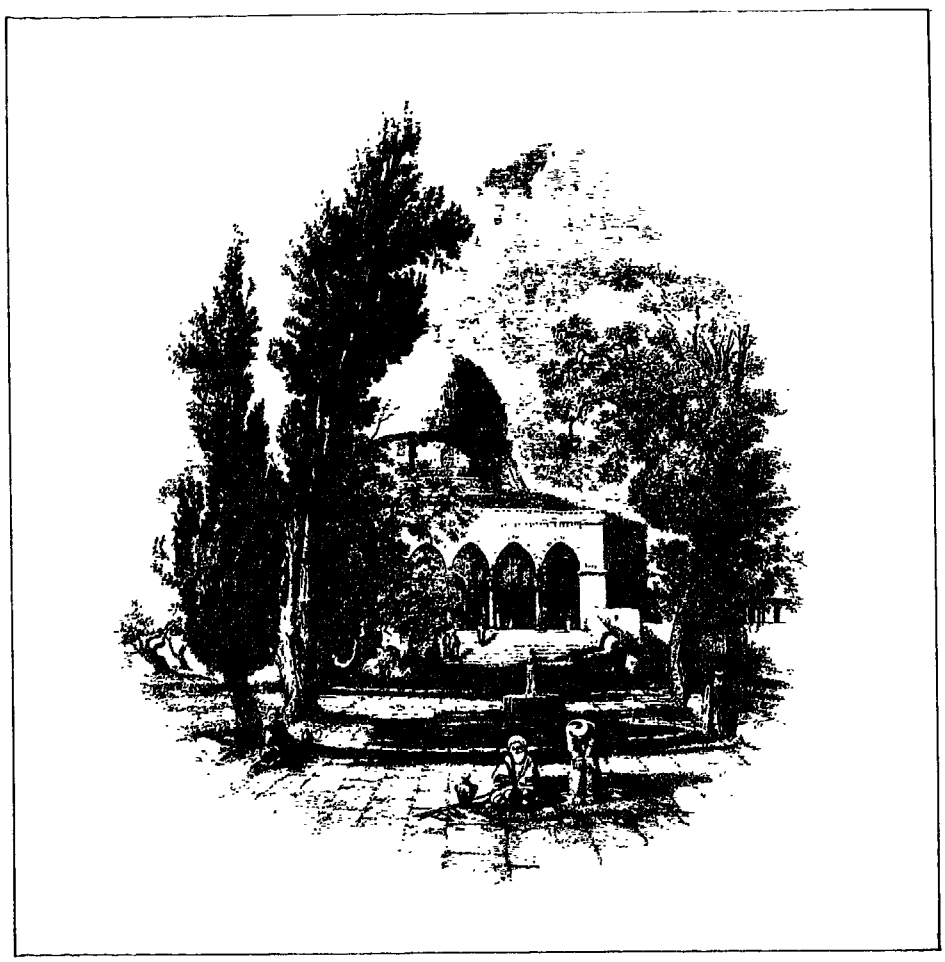

تمهيد

قبل الشروع فى الحديث عن مدينة بيت المقدس تحت حكم سلاطين المماليك لابد لنا من وقفة نستعرض فيها كيف كان تفكك الدولة الأيوبية – التى كانت ترتكز إلى شخصية صلاح الدين الأيوبى – عاملاً من عوامل عدم الاستقرار فى مدينة بيت المقدس ، وكيف أن الصراع الإسلامى/ الصليبى من ناحية ، والصراع الأيوبى/ الأيوبى من ناحية أخرى قد أثرا على استقرار الحياة فى المدينة ، ثم ظهور المماليك كقوة تدافع عن الإسلام ورسوخ قيمة سلطنة المماليك كقوة ضاربة تدافع عن الإسلام والمسلمين وما تلاه من خضوع الأيوبيين فى الشام لسلطانهم ، وكيف أدى ذلك إلى خضوع بيت المقدس لهم ، بالإضافة إلى أهمية المدينة فى السياسة المملوكية التى اعتمدت على القوة العسكرية والواجهة الدينية ، ثم رصد مظاهر هذا الاهتمام .

من المعروف أن مدينة بيت المقدس عادت إلى الحظيرة الإسلامية بعد فتح صلاح الدين الأيوبى لها عام ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م عقب معركة حطين[١] . كما أن اتفاقية الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عام ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م أدت إلى حالة من الاستقرار النسبى فى المدينة[٢] ، إلا أن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً فى عهد خلفاء صلاح الدين مما ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة لمدينة بيت المقدس[٣] ، ويرجع ذلك إلى الصراع الذى نشب بين أبناء البيت الأيوبى المالك ، بسبب اعتبار المملكة إرثاً خاصاً يقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت الأيوبى ، ولحرص صلاح الدين الأيوبى على أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه دون غيرهم ، وأن تكون لبقية أبناء البيت الأيوبى بقية الأقاليم ذات الأهمية الثانوية[٤] ، هذا الصراع الذى أدى إلى نشوب كثير من الحروب والفتن بين أبناء البيت الأيوبى[٥] .

وفى الوقت الذى اشتد فيه الصراع بين أبناء صلاح الدين وتناوب على حكم مدينة بيت المقدس الملك الأفضل صاحب دمشق ثم الملك العزيز صاحب مصر ، مما كان له أثر على استقرار المدينة نتيجة لانتقال تبعيتها من حاكم لآخر[٦] من أبناء صلاح الدين ، وعقب استيلاء الملك العادل أخى صلاح الدين على مصر سنة ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩ م بقيت بيت المقدس تحت حكم العادل حتى وفاته سنة

٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م ، وبموت العادل عادت مدينة بيت المقدس تابعة لابنه المعظم عيسى صاحب دمشق حتى سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م حيث استولى عليها الملك الكامل محمد ابن العادل صاحب مصر[٧] .

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة التى عمت العلاقات بين حكام المسلمين فى مصر والشام من أبناء البيت الأيوبى ، حرص كل حاكم على تكوين عصبية لنفسه يعتمد عليها فى الاحتفاظ بإمارته أو فى صد عدوان جيرانه ، وذلك عن طريق الإكثار من المماليك أو الرقيق الأبيض ، فاشتروا منهم أعداداً كبيرة ، وعنوا بتدريبهم وتنشئتهم ليكونوا لهم عدة وسنداً[٨] . والحقيقة المؤلمة فى هذا الدور الجديد من الصراع بين أبناء العادل الأيوبى ، أنهم لم يكتفوا فى حروبهم ومنازعاتهم الداخلية فيما بينهم بالاستعانة ضد بعضهم البعض بالقوى الجديدة من المماليك ، والذين غدوا الفيصل فى تلك المنازعات ، بل إنهم استعانوا ضد بعضهم البعض بقوى خارجية من الصليبيين[٩] . وإن دل هذا التصرف على شىء فإنما يدل على مدى التشرذم السياسى وعدم الوعى بحقيقة الخطر الذى كان يهدد العالم الإسلامى فى ذلك الوقت . ونقصد بهذا الخطر ، هدف الصليبيين وهو القضاء على الإسلام والمسلمين فى السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، ويبدو أن هذه الحقيقة لم تكن خافية عن أعين المعاصرين ، فمن ذلك ما يرويه لنا المؤرخ المعاصر « ابن واصل » من أنه عندما شرع حنادى بريين فى غزو مصر سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٨ م ، على رأس الحملة الصليبية الخامسة قال الصليبيون : « إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك ، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها . فالمصلحة أن نقصد مصر ونملكها وحينئذ لا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيره من البلاد[١٠] » . مما يؤكد لنا تلك الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك أنه منذ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى سيطرت على الغرب المسيحى الفكرة السائدة أنه مادامت مصر باقية على ما هى عليه من القوة والبأس ، فإن المشاريع الصليبية فى الشام فاشلة لا محالة ، ولابد من حرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة[١١] . والتى جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق نياته وأحلامه الصليبية فى حملته السابعة فقد « حدثته نفسه بأن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية[١٢] » ..

وكانت النتيجة الطبيعية لتفريط بعض ملوك بنى أيوب من أبناء العادل الأيوبى أن استرد الصليبيون بيت المقدس دون قتال سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م ، فى عهد الملك الكامل صاحب مصر ، ذلك أنه نتيجة الخلاف الذى نشب بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق فقد استعان كل طرف منهما بقوى خارجية حسبما يشير « المقريزى » أنه بعد أن « تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف ، وخاف الكامل من انتماء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه فبعث الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية إلى ملك الفرنج[١٣] يريد منه أن يقدم إلى عكا ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل ، ليشغل سر أخيه المعظم ، فتجهز الامبراطور ملك الفرنج لقصد الساحل . وبلغ ذلك المعظم ، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل ووعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه[١٤] » ..

وعلى الرغم من وصول فردريك الثانى بعد موت الملك المعظم فإن الملك الكامل على حسب قول المقريزى « لم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من اتفاق ، فراسله ولاطفه[١٥] » .. ولم يكن أمامه « بد من المهادنة وتسليمه القدس[١٦] » .. وبذلك تم توقيع الاتفاق على أساس تسليم القدس وبيت لحم والرملة وشريط من الأرض بين عكا وبيت المقدس ، مقابل تعهد الامبراطور بعدم قدوم أية حملة من أوروبا لمدة عشر سنوات[١٧] وقد كانت هذه المعاهدة مكسباً كبيراً لفردريك الثانى ، إذ أتاحت له سرعة العودة إلى الغرب لتسوية مشاكله مع البابوية[١٨] .

وقد كان لتسليم بيت المقدس للفرنج دوى هائل فى نفوس المسلمين ، ويصف لنا أحد المؤرخين المعاصرين ذلك ومدى حزن المسلمين لضياعها بقوله « ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج فقامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام واشتدت العظايم بحيث أن أقيمت المآتم[١٩] » .. وظلت المدينة بعد ذلك كالكرة ، تتلاقفها أيدى المسلمين والصليبيين ، حتى استردها المسلمون نهائياً سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م ، عندما استردها السلطان الصالح أيوب بمساعدة الخوارزمية ، وهو السبب الذى أدى إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر ، وفى ظل هذه الأوضاع كان لا يمكن أن تعود الحياة الطبيعية إلى المدينة بسهولة ، وإنما استمرت تعيش فى حالة من الخوف والقلق والترقب حتى بعد عودتها إلى أحضان الأمة الإسلامية . ذلك أن أهالى بيت المقدس ظلوا لا يأمنون على أنفسهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وفى مواجهتهم على الساحل تقوم مملكة صليبية حاضرتها عكا ، تترقب اليوم الذى تعود فيه عقارب الساعة إلى الوراء لتحيى مجدها القديم على أرض بيت المقدس ، هذا فضلاً عن وجود العديد من الإمارات ، والمدن والقلاع الصليبية المنتشرة فى أنحاء بلاد الشام ، والتى كان أهلها جميعاً يتطلعون إلى كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، ويتحينون الفرصة تلو الأخرى لاستعادتها[٢٠] .

وفى ظل هذا القلق وعدم الاستقرار الذى شهدته مدينة بيت المقدس فى تلك الفترة من تاريخها ، رغب كثير من المسلمين عن الحياة فيها ، الأمر الذى جعل القزوينى فى النصف الأول من القرن السابع للهجرة – الثالث عشر للميلاد – يردد نفس العبارة التى سبق أن ذكرها المقدسى قبل ذلك بقرنين ونصف تقريباً من أن مدينة بيت المقدس « قليلة العلماء كثيرة النصارى[٢١] » .

وفى الوقت الذى كانت فيه قوات لويس التاسع تخوض مياه البحر المتوسط قبالة دمياط ، وكانت جحافل المغول بقيادة هولاكو تطوى بلدان الشرق الإسلامى ، وهى تقترب من عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، وكان على العالم الإسلامى أن يلتزم جانب الدفاع إزاء الهجوم الذى كان يتعرض له من الشرق والغرب على حد سواء ، كان انتصار فرسان المماليك فى مصر على الصليبيين بين المنصورة وفارسكور سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٥٠ م ، ذلك الانتصار الذى كان بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك[٢٢] ثم تلا ذلك سقوط بغداد فى أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م ، وبهذا خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب[٢٣] .

وبقيام دولة سلاطين المماليك فى مصر عند منتصف القرن السابع الهجرى – الثالث عشر

الميلادى – ظلت بلاد الشام ميداناً لصراعات عديدة بين المسلمين والصليبيين ، وبين الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر ، فضلاً عما كان بين ملوك بنى أيوب بعضهم البعض . ومع بداية تلك الفترة التاريخية دخلت مدينة بيت المقدس دائرة الصراع بين الأيوبيين فى بلاد الشام ممثلين فى الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ، وبين المماليك بزعامة الملك المعز أيبك[٢٤] . ويهمنا من هذا الصراع أن كلا من الطرفين حاول الاستعانة بالصليبيين ضد الطرف الآخر ، ويؤكد لنا جوانفيل – وهو معاصر لتلك الفترة – ذلك بقوله إنه بينما كان الملك لويس التاسع « القديس لويس كما يسميه » فى عكا سنة ١٢٥٠ – ١٢٥١ ، فإن حاكم دمشق أرسل بعض مبعوثيه لكى يروا الملك وليشكوا مر الشكوى من أمراء مصر الذين قتلوا ابن عمه ، وقد وعد حاكم دمشق لويس إذا ساعده أن يسلمه مملكة بيت المقدس ، ثم يقول فى موضع آخر : « ونسيت أن أذكر لكم رد الملك لويس على سلطان دمشق بأنه ليس لديه النية للانضمام إلى سلطان دمشق ، إلا إذا عرف هل أمراء مصر سوف يقدمون له تعويضاً أو ترضية مقابل المعاهدة التى نقضوها ، ولذا سوف يرسل لهم ، فإذا رفضوا التعويض فإنه سوف يسعده أن يساند سلطان دمشق للثأر من ابن عمه ، وعندما أرسل لأمراء مصر يطالبهم بذلك التعويض ، ردوا عليه أنه يسعدهم أن ينفذوا ذلك على افتراض أن الملك سوف ينضم للتحالف مع سلطان دمشق ، وقد أقنعهم مبعوثه بضرورة تلك الترضية عن طريق افتكاك أسرى الصليبيين المحجوزين لديهم ، وفعل الأمراء كما نصحهم مبعوث الملك ، ثم عاد مبعوث الملك إلى عكا ومعه مائتان من الفرسان المأسورين بالإضافة إلى عدد آخر من ذوى المراتب البسيطة » . ثم يقول : « إن الملك أعطى رده لمبعوث أمراء مصر بأن أخبرهم ، بأنه لن يتحالف معهم ضد سلطان دمشق إلا إذا أرسلوا له رؤوس القتلى الصليبيين التى علقوها على أسوار القاهرة ، » .. كما يروى أنه فى عام ١٢٥٢ م وصلت موافقة أمراء مصر على طلبات الملك ، متعهدين بأن يصل الملك فى يوم محدد إلى يافا وهم سيكونون فى غزة فى ذلك اليوم لكى يسلموه بيت المقدس ، ومعنى هذا أننا عن طريق تمسكنا بإيماننا أصبحنا مرتبطين بمساعدة أمراء مصر ضد سلطان دمشق[٢٥] » .

وفى هذه الرواية خير دليل على استعانة كل منهما بالصليبيين . كما يرى بعض الباحثين العرب أن السلطان أيبك ، لكى يضمن توطيد نفوذه فى مصر ، قرر أن يواصل زحفه نحو الشام عقب الصراع الذى نشب بينه وبين الناصر يوسف ، ولكى يضمن النجاح لمشروعه ، حاول أن يضم لويس التاسع إلى جانبه ، ووعده ببيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف[٢٦] إلا أن تدخل الخليفة العباسى المستعصم هو الذى أنقذ الموقف ، فأراد توحيد الجبهة الإسلامية ، نظراً لشعوره بخطر المغول ، وتمكن رسوله نجم الدين البادرائى من عقد صلح بينهما سنة ٦٥١ هـ/ ١٢٥٣ م على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما فى ذلك غزة وبيت المقدس ، بينما تظل الشام للملك الناصر[٢٧] . وفى رأينا أن مدينة بيت المقدس لم تخضع طويلاً لسلطنة المماليك نتيجة لهذا الاتفاق ، فبعد ما يقرب من ثلاث سنوات تم توقيع معاهدة بين السلطان أيبك والناصر يوسف صاحب دمشق تنازل فيها أيبك عن فلسطين بما فيها مدينة بيت المقدس بناء على توسط الخليفة العباسى[٢٨] ، وبذلك ظلت المدينة فى الفترة ما بين ٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م – ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م بأيدى الناصر يوسف صاحب دمشق ، وهى السنة التى شهدت اجتياح المغول لبلاد الشام من شمالها إلى جنوبها .

وفى أثناء الغزو المغولى ظهر جليا تقاعس الأيوبيين عن الدفاع عن بلاد الشام ، من ذلك أن الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب أوجس خيفة من هولاكو وجيشه ، وقدر أنهم سيستولون على الشام بين عشية وضحاها ، لذا أرسل ابنه الملك العزيز محمد سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م إلى هولاكو يخطب وده ، ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من المماليك[٢٩] . وفى الوقت الذى بدا فيه تخاذل الأيوبيين عن الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الغزو المغولى ، انهارت أيضاً معارضتهم لقيام دولة المماليك الذين أبدوا ثباتاً وصلاحية للبقاء لمواجهة هذا الخطر[٣٠] ، ثم كانت موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م بمثابة تأكيد للدور الذى اضطلعت به دولة سلاطين المماليك منذ مولدها ، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامى ، حيث تمكنت جيوش الدولة الجديدة من كسر الموجة المغولية الطاغية ، وبذلك تأكد دورها كقوة حامية للعالم الإسلامى[٣١] . هذا فضلاً عما ترتب على هذه الموقعة من نتائج كان منها خضوع بلاد الشام ومنها بيت المقدس لسيطرة سلاطين المماليك ، وما ترتب على ذلك من تجنيب المدينة الكثير مما لحق بغيرها من مدن بلاد الشام من دمار وفناء وإحراق وانتهاك لمقدسات المسلمين وبيوتهم ، مثلما أصاب حلب ودمشق وغيرهما من المدن الشامية التى وقعت بأيديهم حيث نشروا الرعب والفزع أينما حلوا[٣٢] .

والأهم من هذا أن انتصار المماليك فى موقعة عين جالوت قد حقق لدولة سلاطين المماليك الناشئة مكانة لا يستهان بها فى نفوس المعاصرين ، كما دعم نفوذها فى بلاد الشام وألقى على كاهلها مهمة إتمام ما قام به صلاح الدين الأيوبى من حركة الاسترداد ، فضلاً عن رسوخ قيمة دولتهم كمدافعة عن المسلمين والإسلام ، فكل غزوة للمغول على بلاد الشام كانت تقابل بجيوش المماليك فى بلاد الشام ، وبهجوم مضاد على أرمينيا والأناضول حيث تحالف الأرمن مع المغول ضد السلطات المملوكية ، وفى نفس الوقت فقد طرد سلاطين المماليك البقايا الصليبية من بلاد الشام ، فضلاً عن أنهم تمكنوا من كسر شوكة المغول وحلفائهم من الأرمن بل وأخضعوهم لنفوذهم ، وبذلك أصبحت دمشق كموقع متقدم للدفاع عن مصر ، وحلب للدفاع عن المناطق الداخلية من بلاد الشام ، كما أن قيليقية وأرمينية غدت ضمن المناطق الدفاعية الشمالية للبلاد ، فضلاً عن أن المناطق الساحلية قد حشدت بالمحاربين من التركمان والأكراد ، وبذلك أصبحت بلاد الشام شبه مغلقة ضد الغزوات والأخطار الخارجية التى هددت أمنها[٣٣] .

أما عن أهمية مدينة بيت المقدس فى السياسة المملوكية فترجع إلى أن طبيعة المدينة الدينية ، باعتبارها أحد الأماكن المقدسة التى تتعلق بها قلوب المسلمين فى شتى أنحاء البلاد ، كانت تمثل أحد أركان النظرية السياسية لدولتهم التى اعتمدت على القوة العسكرية من جهة والواجهة الدينية من جهة أخرى . أما عن القوة العسكرية لدولة سلاطين المماليك فيتضح لنا مما سبق وأوردناه أنه قد رسخ فى نفوس المعاصرين أن قوة المماليك الناشئة أثبتت فعاليتها فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الأخطار المحيطة بالعالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، ومع هذا فإن بطولات هؤلاء المماليك فى المنصورة وفارسكور وفى عين جالوت لم تكن لتشفع لهم أو تغير نظرة المعاصرين لهم باعتبارهم عبيداً لا يحق لهم الجلوس على عرش البلاد ، حيث من المعروف أن النظرية السياسية الإسلامية تجعل من

شرط الحكم أن يكون الحاكم حراً[٣٤] ، لذا فمما لا شك فيه أن السلطان الظاهر بيبرس – والذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك – لم ينس مطلقاً مدى استياء وتذمر المعاصرين من سلاطين المماليك ، بدليل قول ابن تغرى بردى « إن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق ، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يسمعونه ما يكره حتى فى وجهه إذا ركب ومر بالطرقات ، ويقولون لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة[٣٥] » . لذا كان على سلاطين المماليك أن يبحثوا لسلطنتهم الوليدة عن سند شرعى يدعمون به حكمهم فى نظر المعاصرين ، وسارع الظاهر بيبرس إلى تلقى أحد أبناء البيت العباسى واسمه أبو العباس أحمد سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م ومعه حشد من العلماء والأعيان والشهود والمؤذنين حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ، ثم عقد له مجلساً بقلعة الجبل بالديوان الكبير ، حضره القضاة والعلماء وجميع كبار الدولة وكبار التجار ووجوه الناس ، وبعد أن أثبتوا صحة نسبه بايعوه بالخلافة ، ثم قلد الخليفة الجديد وهو المستنصر بالله السلطان بيبرس البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار[٣٦] . كما تم إحياء الخلافة العباسية مرة ثانية عام ٦٦١ هـ بعد مقتل الخليفة العباسى الأول فى حربه مع التتار ، بالعراق ، وفى هذه المدة حرص بيبرس على أن تكون الخلافة العباسية بمصر ، فتستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة ، وبنفس الطريقة السابقة ، عقد مجلساً عاماً بالإيوان الكبير بالقلعة كما حدث للمستنصر من قبل وبايع الخليفة الجديد الذى قام بدوره بتقليد السلطان أمور العباد والبلاد ولقبه بلقب « قسيم أمير المؤمنين » . ويعتبر بيبرس أول من تلقب بهذا اللقب من قبل خليفة ، وهذا اللقب من أجلّ الألقاب[٣٧] . واستفاد سلاطين المماليك من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة حيث شملتهم بالحماية الروحية إذ صاروا منذ ذلك الحين وحتى الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ م ، يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامى ، وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعاً باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها ، وفى ذلك يقول ابن شاهين : « ولا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله ، فإنه الآن أعلى الملوك وأشرفهم مرتبة ، سيد الأولين والآخرين ، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى بعقد الأئمة الأربعة[٣٨] » .

كذلك كان على سلاطين المماليك أن يترجموا سياستهم الدينية إلى واقع ملموس لكى يحظوا بتأييد المعاصرين لهم وتغيير نظرتهم إليهم ، لذلك ظهرت لهم كثير من التسميات الدينية العديدة والتى وضحت فى مكاتباتهم الرسمية وعلى العملة ، مثل « نصير أمير المؤمنين » ، « سلطان الإسلام والمسلمين » ، « محيى العدل فى العالمين » ، « ظل الله فى أرضه » ، « القائم بسنته وفرضه » ، « حامى الحرمين الشريفين والقبلتين » ، وأعلاها « قسيم أمير المؤمنين[٣٩] » ويبدو أن هدفهم من وراء تلك التسميات التى اتخذوها فى مراسلاتهم المختلفة وعلى السكة هو التأكيد على الشرعية التى أصبحوا يتمتعون بها بعد إحياء الخلافة .

ويهمنا فى هذا المقام انعكاس سياستهم الدينية على بيت المقدس ومظاهر الاهتمام بها ، وفى الجدول التالى سنورد بعض مظاهر اهتمام سلاطين وأمراء المماليك بالمؤسسات الدينية والاجتماعية والخيرية فى

بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، بما يكفل لنا إعطاء صورة واضحة عن هذا المجال ، باعتبار أن القدس بما لها من مكانة مقدسة لدى المسلمين جميعاً تمثل ركيزة هامة كان عليهم أن يولوها من الرعاية والعناية ما يبرزون به الجانب الدينى من سياستهم .

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
١ – السلطان الظاهر بيبرس	١ – عمر قبة الصخرة سنة ٦١٦ هـ ورتب برسم مصالح المسجد الأقصى فى كل سنة خمسة آلاف درهم، كما عمر قبة موسى ، وفى سنة ٦٦٨ هـ زار المدينة وعمر خانا كبيراً وجدد قبة السلسلة ، ورمم شعث الصخرة ، وبنى على باب عبيده بن الجراح منها مشهداً ، ووقف عليه شيئاً للواردين .	المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٤٩١ ، الصلاح الكتبى : فوات الوفيات ، طبع بولاق القاهرة، ١٢٨٣ هـ، جـ ١ ، ص ١١٤ .
	٢ – أوقف على الخان الذى أنشأه وعرف بخان الظاهر نصف قرية لفتا وغيرها من القرى بأعمال دمشق وجعل بالخان فرناً وطاحونا ، وجعل للمسجد الذى فيه إماماً وشرط فيه أشياء من فعل الخير من تفرقة الخبز على بابه وإصلاح حال النازلين به .	ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ٧، ص ١٢١، مجير الدين: الأنس الجليل، جـ ٢ ، ص ٤٣٤ .
	٣ – أمر بارتجاع عدة ضياع من أوقاف الخليل عليه السلام كانت قد دخلت فى الإقطاع وعوض الأمراء عنها، ثم وقف وحبس القرية المعروفة باذنا عليه وقفاً صحيحاً شرعياً .	ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر – تحقيق فاطمة صديق ، اكسفورد ١٩٥٦، ص ٨٩ .
	٤ – فى عهده تم إنشاء دار الحديث بجوار التربة الجالقية على طريق باب السلسلة .	
	٥ – كذلك تم فى عهده إنشاء المدرسة الأباصيرية تجاه الرباط المنصورى بجوار باب الناظر .	عارف العارف : تاريخ القدس، دار المعارف ١٩٥١، ص ٨٧ – ٨٨
٢ – المنصور قلاوون	١ – تم فى عهده إنشاء الرباط المنصورى ، وهو يقع بباب الناظر أحد أبواب المسجد الأقصى ، وهو رباط غاية فى الحسن والبناء المحكم .	
	٢ – عمر سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة عند جامع الأنبياء .	مجير الدين : المصدر نفسه ، جـ ٢

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
برقوق	التى يراها الداخل أمامه إذا ما دخل من باب المسجد الأقصى من الباب القبلى ، تجاه المحراب .	ص٢٩٠، سعيد عاشور « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس» ص١٦ .
	٢ – كذلك أنشئت فى عهده المدرسة الغزية على مقربة من باب الأسباط .	عارف العارف : نفس المرجع ، ص ٩٦ .
	٣ – تم تعمير البركة التى بظاهر القدس من جهة الغرب وهى بركة السلطان .	
	٤ – كما تم تجديد القيسارية الموقوفة على الحرم الشريف بالقدس .	سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٩٦ .
٨ – الناصر فرج بن برقوق	١ – على الرغم مما اشتهر به فى التاريخ من سوء السيرة، إلا انه فى زيارته لبيت المقدس فرق على الناس خمسة آلاف دينار ، وهو مبلغ لا شك كبير بالنسبة لمقاييس ذلك العصر وعشرين ألف فضة ، كذلك زار الخليل ، وعلق بالمسجد الستائر الحريرية على الأضرحة التى به .	المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ فى حوادث سنة ٨١٢ هـ ، سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٦ .
٩ – المؤيد شيخ	١ – زار القدس سنة ٨٢٠هـ وفرق فى أهله مالاً جزيلاً ، وصلى الجمعة ، وجلس بالمسجد الأقصى بعد الصلاة ، وقرىء صحيح البخارى بين يديه من الفقهاء القادمين إلى لقائه من القاهرة والقدس .	المقريزى : السلوك ، جـ ٤ فى ذكر حوادث سنة ٨٢٠ هـ .
١٠ – الأشرف برسباى	١ – فى عهده عمرت الأوقاف بالقدس الشريف ، واشتريت عدة جهات للوقف من القرى والمسقفات برسم المسجد الأقصى والصخرة الشريفة وأصلحت قبة الصخرة .	مجير الدين: الأنس الجليل الجليل جـ٢ ، ص ٤٣٨ .
	٢ – كما تم فى عهده إنشاء المدرسة الباسطية شمال الحرم بالقرب من باب الغنم، والمدرسة القادرية بين باب حطة من الغرب ومئذنة إسرائيل من الشرق ، وكذلك المدرسة الحسينية بباب الناظر غربى الحرم فوق رباط علاء الدين البصير ، هذا بالإضافة إلى المدرسة العثمانية بباب المتوضأ تجاه سبيل قايتباى .	عن هذه المدارس راجع: عارف العارف: تاريخ القدس، ص٩٦– ٩٧ .
١١ – الظاهر	١ – أنعم على الحرمين بألفين وخمسمائة دينار	المرجع السابق ،

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
		ص ٤٣٥ ، عارف العارف : نفس المرجع ، ص ٢٩٦ .
	٣ – رسم أن تكون جوالى الذمة بالقدس والخليل وبيت لحم وبيت جالة مرصدة لعمارة بركة فى بلد الخليل .	المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ، قسم ٣ ص ٧١٢ .
٣ – العادل كتبغا	١ – جدد فصوص الصخرة الشريفة كما جدد عمارة السور الشرقى المطل على مقبرة باب الرحمة .	سعيد عاشور : بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ، ص ١٥ .
٤ – المنصور لاجين	١ – جدد عمارة محراب داود الذى بالسور القبلى عند مهد عيسى عليه السلام بالمسجد الأقصى الشريف .	
	٢ – بنيت فى عهده مأذنة باب الغوانمة فى الزاوية الغربية التالية للمسجد الأقصى .	عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٢٩ ، سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٥ .
٥ – الناصر محمد بن قلاوون	١ – فى عهده تم إنشاء رباط بالقدس وحمامين وقياسر .	ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٥٨ ، ابن حجر الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، حيدر اباد ١٣٤٨ هـ ، جـ ١ ، ص ٥٢٢ .
	٢ – عمر السور القبلى الذى عند محراب داود عليه السلام ، ورخم صدر المسجد الأقصى ، ومسجد الخليل عليه السلام ، كذلك فتح فى المسجد الأقصى الشباكين اللذين عن يمين المحراب وشماله وجدد تذهيب القبتين قبة المسجد الأقصى وقبة الصخرة . وعمر القناطر على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة التى	

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
	إحداهما مقابل باب حطة ، والأخرى مقابل باب الدويدارية أحد أبواب المسجد الأقصى ، كما عمر باب القطانين أحد أبواب المسجد الأقصى بالبناء المحكم .	
	٣ – عمر قناة السبيل الواقعة عند بركة السلطان بظاهر القدس من جهة الغرب .	مجير الدين : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٣٨ ؛ عارف العارف ، نفس المرجع ص ٢٩٦ .
	٤ – فى عهده بنى الأمير تنكز نائب الشام مئذنة باب السلسلة ، كذلك جدد مئذنة باب الغوانمة .	عارف العارف : نفس المرجع ص ٢٩٩ .
	٥ – وفى عهده أوقف الأمير تنكز نائب الشام عدة أوقاف كثيرة بالقدس وبنى دارا للحديث ، وبنى مدرسة وخانقاه ورباطا وله سوق موقوفة على المسجد الأقصى .	ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، ص ١٨٧ ، ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ٥ ، ورقة ٩٣ .
	٦ – كذلك تم إنشاء المدرسة الجاولية نسبة للأمير علم الدين سنجر الجاولى وكذلك المدرسة الكريمية بباب حطة .	عارف العارف : نفس المرجع،ص٩٠– ٩١.
٦ – الأشرف شعبان بن حسين	١ – عمر المغارة التى عند باب الأسباط ، كما جدد الأبواب الخشبية المركبة على بوابات الجامع الأقصى .	
	٢ – جددت فى عهده القناطر التى على الدرجة الغربية فى صحن الصخرة المقابل لباب الناظر .	
	٣ – جددت المغارة التى عند باب الأسباط وهى بين باب الأسباط وباب حطة فى الناحية الشمالية الشرقية من الحرم .	
	٤ – كذلك أنشأ بعض أروقة فى الحرم من جهة الشمال .	المرجع السابق ، ص ٣٠٠ .
٧ – الظاهر	١ – عمرت فى عهده دكة المؤذنين ، تلك الدكة	المرجع السابق ،

اسم السلطان	المنشآت ذات الدلالة الدينية التى تمت فى عهده	المصدر أو المرجع
جقمق	ذهب ومئة وعشرين قنطارا من الرصاص لعمارة سقف الصخرة الشريفة .	ص ٢٩٠ .
	٢ – كما تم فى عهده إنشاء المدرسة الأشرفية بجوار باب السلسلة .	المرجع نفسه ، ص٩٨
١٢ – الأشرف إينال	١ – فى عهده تمت عمارة المسجد الأقصى الشريف .	نفس المرجع ، ص ٩٧
	٢ – كذلك أنشأ السبيل المعروف بسبيل قايتباى	
١٣ – الأشرف خشقدم	فى عهده عمرت قناة السبيل .	نفس المرجع ، ص٩٧
١٤ – الأشرف قايتباى	١ – فى عهده صنعت الأبواب النحاسية للمسجد الأقصى .	نفس المرجع ، ص ٢٩١ .
	٢ – كما تمت عمارة المسجد الأقصى وكذلك قناة السبيل .	مجير الدين : نفس المصدر جـ ٢ ، ص٦١٩ – ٦٢٠ .
	٣ – وتم إنشاء كل من المدرسة المزهرية بباب الحديد ، والمدرسة الزمبينية غربى الحرم فوق الإيوان الذى بباب القطانين ، وكذلك المدرسة الأشرفية وهى التى سنتناولها بالوصف فى الفصل الرابع من هذا البحث .	عارف العارف ، نفس المرجع ، ص ٩٨ .
١٥ – قانصوه الغورى	١ – فى عهد قانصوه الغورى وهو آخر سلاطين المماليك بمصر جددت عمارة المسجد الأقصى ، كما أصلحت الفصوص ، وتم بياض الجدران ودهان الأبواب وعمليات الترميم وغير ذلك .	سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٩ .

من هذا الجدول تتضح لنا مدى العناية التى أولاها سلاطين وأمراء المماليك للمنشآت الدينية فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، مما يعطى انطباعاً بأن قيام دولة سلاطين المماليك فى الحكم ، ليس ضرورة لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية فحسب ، بل أيضاً لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته ، هذا بالإضافة إلى أن تلك العناية لم تكن قاصرة على سلاطين المماليك وحدهم ، بل شاركهم فيها كثير من الأمراء .

وفى نفس الوقت يبين لنا الجدول أن سلاطين المماليك قد رصدوا جزءاً من ثرواتهم الضخمة التى عادت عليهم من وراء التجارة فى رعاية مقدسات المسلمين ، ليظهروا دائماً فى صورة رعاة الدين الساهرين على علومه وأركانه ، المنفذين لأحكامه وشريعته .

كذلك يعكس لنا الجدول أن العناية بمدينة بيت المقدس لم تكن قاصرة على المؤسسات الدينية ، بل كانت عنايتهم بالمؤسسات العلمية والخيرية والاجتماعية لتوفير أسباب الحياة الطيبة فى المدينة وتنشيط الحياة فيها ، بعد أن تحررت من الخوف الذى خيم عليها نحوا من قرنين من الزمان ، كما يعكس لنا أيضاً بعض ما أوقفه المماليك والخيرون على هذه المنشآت من الأوقاف الجليلة ، ذات الايرادات الوفيرة ، ليضمنوا لها البقاء والاستمرار .

كما يبين لنا الجدول ، أنه على الرغم من حالة الاضطراب السياسى التى كانت تتعاقب على دولة سلاطين المماليك ، مثل الفترة التى أعقبت مقتل الأشرف خليل بن قلاوون ، وكذلك فى أواخر عصر سلاطين المماليك أيام قانصوه الغورى ، فإن اهتمام السلاطين ببيت المقدس ورعاية مقدساتها كان واضحاً ، حيث لم يغفلوا أمرها .

هذا إلى جانب أنه بقيام دولة المماليك الثانية سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م ، ازداد حرص سلاطين تلك الدولة على رعاية تلك المقدسات ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى حرص سلاطين المماليك فى تلك الدولة على ألا يكونوا فى نظر معاصريهم أقل مرتبة ممن سبقوهم ، وهذا يتضح بجلاء من حرص الكثيرين منهم على بذل كل جهد ممكن للعناية بالحرم القدسى الشريف وقبة الصخرة المباركة ، سواء بالإضافة أو الإصلاح أو الترميم . وإن دل هذا على شىء ، فإنما يدل على أن اهتمام سلاطين المماليك كان دائماً هو أن يرسخوا فى نفوس معاصريهم أنهم حماة الإسلام والعقيدة الإسلامية ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض السلاطين الذين اشتهروا منهم بالتقوى والصلاح فعلاً أمثال السلطان جقمق .

وأخيراً تجب الإشارة إلى أننا نلاحظ أن المؤسسات الدينية والخيرية كانت كثيرة فى عهد سلاطين المماليك البحرية ، أى دولة المماليك الأولى كما يسميها البعض ، بينما نرى أنه فى دولة المماليك الثانية أو الجراكسة فقد قلت هذه المؤسسات ، ولم يكن هذا بسبب أن المماليك قد دعموا نفوذهم وسلطانهم ومحوا ما فى نفوس معاصريهم من شعور نحوهم بقدر ما هو راجع إلى حالة الانهيار الاقتصادى الذى عم دولة سلاطين المماليك منذ القرن الخامس عشر الميلادى .

كما تجب الإشارة أيضاً إلى نقطة بالغة الأهمية بالنسبة للعمارة الدينية المسيحية ، فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، وهى أن بعض المؤرخين يروون دائماً أن سلاطين المماليك كانوا يمنعون الطوائف غير الإسلامية من بناء أى مبنى دينى لهم فى القدس[٤٠] . إلا أن الحقيقة التى لا تدع مجالاً للشك هى أن أبناء الطوائف المسيحية المختلفة فى ظل حكم سلاطين المماليك تمتعوا بالحرية الدينية ، وممارسة شعائرهم داخل مؤسساتهم الدينية ، كما سمح لهم بإصلاحها وترميمها وإعادة ما تهدم منها ، ليس هذا بالنسبة لأبناء الطوائف المسيحية المحلية فحسب ، بل المسيحيين الغربيين المقيمين فى بيت

المقدس . وقد أورد أستاذنا الدكتور أحمد دراج فى كتابه « المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى – الخامس عشر الميلادى[٤١] – » دراسة وثائقية هامة جداً تفند تلك الآراء وتبين مدى بطلانها ، كما يتضح منها تسامح حكام بيت المقدس معهم ، وكذلك السلاطين ، وحرصهم الدائم على تأمينهم ومؤسساتهم التى يقيمون فيها . كما يؤكد لنا المقريزى ذلك بما لا يدع مجالاً للشك فى حديثه عن سنة ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م حيث يقول : « .. وفيها قدم إلى يافا مركب فيه فرنج ، معهم أخشاب ، وعجل ، وصناع ، برسم عمارة بيت لحم ، بالقدس ، حيث مولد عيسى عليه السلام ، وبيدهم مرسوم السلطان بتمكينهم من العمل . فدعوا الناس للعمل بالأجرة ، فأتاهم عدة من القلعة والصناع ، وشرعوا فى إزاحة ما بطريقهم من الأوعار . كان سبب هذا أن موسى – صبى بطرك النصارى الملكانية – سأل السلطان لما قدم إلى القدس ، بعد نوبة صرخد ، فى سنة اثنتى عشرة وثمان مائة ، أن يمكن النصارى من إعادة عمارة مولد عيسى – بيت لحم – على ما كان عليه فكتب له بذلك مرسوماً ، فطار به كل مطار ، وبعث إلى بلاد الفرنج فاغتنموا الفرصة ، وبعثوا هؤلاء .. »[٤٢]

الوضع الإدارى لبيت المقدس

سبقت الإشارة إلى أنه تم لسلاطين المماليك بسط سيطرتهم على بلاد الشام كلها عقب موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م ، فقسموا بلاد الشام إدارياً إلى ستة أقسام كبرى ، أطلقوا عليها اسم نيابات ، لأن كلا منها على رأسها نائب لسلطان المماليك فى القاهرة يتبعه وينوب عنه فى حكمها ، وقد ظهرت هذه النيابات تدريجياً ، وليس بقرار واحد أو فى وقت واحد ، وهى على حسب ترتيب ظهورها : نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة حماة ، ونيابة الكرك والأردن ، ونيابة صفد ، ونيابة طرابلس . وكان على رأس كل نيابة من هذه النيابات أمير كبير من أمراء المماليك ، يتمتع بلقب نائب السلطان ، وأكبرهم مقاماً هو نائب دمشق الذى كانت نيابته أجل النيابات الشامية وأرفعها فى الرتبة ، حتى أطلق على نيابته اسم « نيابة الشام » أو « مملكة الشام[٤٣] » . ومن ناحية أخرى فإن كل نيابة من هذه النيابات الكبرى انقسمت بدورها إلى أقسام إدارية صغيرة ، أطلق عليها القلقشندى اسم « ولايات » أو « نيابات صغار[٤٤] » .

أما عن وضع مدينة بيت المقدس فمن المعروف أن إدارتها فى العهد الأيوبى كانت تناط بعهدة أمير من أمراء السلطان ويطلق عليه « وال[٤٥] » . ومن المرجح أنها استمرت كذلك فى أوائل عصر سلاطين المماليك ، أى أنها كانت ولاية صغيرة تتبع نيابة دمشق ، كما كان يوجد فى قلعتها نائب صغير يعينه نائب دمشق[٤٦] . وتذكر بعض المصادر أنه كان بالمدينة « نائب » ، الأمر الذى يوحى بأنها كانت نيابة مثل سائر النيابات ، فعلى سبيل المثال يذكر لنا ابن عبدالظاهر فى حديثه عن اتفاقية الهدنة التى أبرمها السلطان قلاوون مع الفرنج عام ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م « مملكة القدس الشريف » مما قد يوحى بأنها كانت نيابة مثل نيابتى الشام وحلب وغيرها من النيابات الكبار[٤٧] . كذلك فإن المقريزى فى حديثه عن الظاهر بيبرس يقول : « ... وفى ذى الحجة نزحت بئر السقاية التى بالقدس

حتى اشتد عطش الناس بها ، فنزل شخص إلى البئر فإذا قناة مسدودة ، فأعلم الأمير علم الدين الحاج الركنى نائب القدس[٤٨] » وعلى الرغم من ذلك فإننا نستطيع أن نؤكد أن القدس كانت ولاية صغيرة أو نيابة صغيرة ، تابعة لدمشق ولعل خير دليل على ذلك ما يرويه لنا ابن تغرى بردى فى قوله : « ولما كان الوالى على نيابة دمشق كان يولى نائب القدس والرملة وصيدا وبيروت وبعلبك وغيرها على عادة من تقدمه ..[٤٩] » ويؤكد لنا الدمشقى هذه الحقيقة بقوله : « ... ومن أعمال دمشق وجندها أيضاً البيت المقدس بمدينة القدس ...[٥٠] » وعلى أية حال ، فإن القدس بوصفها « نيابة صغرى » – على حد تعبير القلقشندى – جعلت المؤرخين يتحدثون عن واليها باعتباره « نائباً صغيراً » على ما يبدو .

كما تضاربت أقوال المؤرخين فى تحديد التاريخ الذى تحولت فيه إلى نيابة مستقلة بذاتها[٥١] ، إلا أن المؤرخ ابن حجر فى حديثه عن سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م يقول : « وفيها استقر تمراز فى نيابة القدس وهو أول من ولى نيابتها ، وكانت قبل ذلك يكون فيها وال من جهة وال الولاة بدمشق ..[٥٢] » . ويؤكد القلقشندى – وهو رجل يمثل نموذج **الإدارى المورخ والعليم بالشئون الإدارية** بحكم عمله فى ديوان الإنشاء – تلك الحقيقة بقوله : « نائب القدس الشريف وهو ممن استحدثت نيابته فى الدولة الأشرفية » شعبان بن حسين » فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، وكانت قبل ذلك ولاية وهو طبلخاناه ... » ، كذلك قوله فى موضع آخر : « أنها كانت فى الزمان المتقدم ولاية صغيرة يليها جندى ثم استقرت طبلخاناه فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، وأن العادة جرت أن يضاف إليها نظر الحرمين : حرم الخليل عليه السلام ، وحرم القدس ...[٥٣] » . وعلى هذا فإن تحويل القدس من ولاية إلى نيابة قد حدث زمن الأشرف شعبان وفى سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م على وجه التحديد . ومن الطبيعى أن نميل إلى أقوال كل من ابن حجر والقلقشندى لقربهما الزمنى من تلك الأحداث ، فضلاً عن أن القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » كان يهتم بالنواحى الإدارية بالدرجة الأولى ، هذا بالإضافة إلى أن أقوالهما عن التغيير الذى حدث كانت صريحة بما لا يدع مجالاً للشك .

ونعود فنؤكد اهتمام سلاطين المماليك بمدينة بيت المقدس تدعيماً لنفوذهم فى تلك المدينة ، ولربط إدارتها مباشرة بسلطنتهم فى القاهرة ، عقب تحويلها إلى نيابة لها نائب يعينه السلطان ، بعد أن كان واليها يعين من قبل نائب السلطنة فى دمشق ، هذا فضلاً عن ربطهم المدينة بالقاهرة عن طريق أبراج الحمام ، التى تقوم بتوصيل الأخبار بسرعة ، حيث كان بمدينة بيت المقدس أبراج للحمام تخرج منها الرسائل إلى غزة ومنها إلى القاهرة مباشرة ، كذلك ارتبطت مدينة الخليل بغزة ثم القاهرة[٥٤]

ولا نريد أن نمر على ظاهرة تحويل بيت المقدس من ولاية صغيرة تابعة لنائب دمشق إلى نيابة مستقلة قائمة بذاتها تتبع السلطنة المركزية فى القاهرة مباشرة ، دون أن نحاول تعليلها تاريخياً . ذلك أن النظرية السياسية التى قام عليها الحكم فى دولة سلاطين المماليك يمكن بلورتها فى أن أمراء المماليك اعتقدوا أن عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين ، وقد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك فى حكمهم على قوة ذات جناحين ، أحدهما يتمثل فى القوة

العسكرية للسلطان ، وهى القوة التى يجسدها بمماليكه ، ويتمثل الجناح الثانى فى الواجهة الدينية التى حرص السلاطين على التخفى وراءها طوال العصر[٥٥] . أما الشق الثانى من هذه السياسة فقد تحقق لهم بما شملوا به مقدسات المسلمين فى المدينة من عناية ورعاية وهو ما سبق أن تناولناه فى الصفحات السابقة ، كذلك كان عليهم لتحقيق الشق الأول من تلك السياسة بالإضافة إلى الإكثار من شراء المماليك ، أن يتقربوا إلى كبار الأمراء بتوزيع الاقطاعات عليهم وكذلك الوظائف[٥٦] . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفسر هذا التحول فى ضوء التطور الإدارى الحتمى لدولة سلاطين المماليك ، وخلق مناصب كبيرة لأمراء الطبلخاناه .

كذلك لعله من المرجح أيضاً أن يكون هذا التحول قد جاء نتيجة لما شعر به سلاطين المماليك عقب طردهم للصليبيين من بلاد الشام ، من أن بيت المقدس لم تبرح تفكير كل رجل وامرأة فى الغرب الأوروبى[٥٧] . وتتضح هذه الفكرة صراحة فى أقوال حجاج بيت المقدس من المسيحيين الغربيين ، فمن ذلك ما يرويه لنا سير جون ماندیفيل الذى زارها سنة ٧٢٢ هـ/ ١٣٢٢ م فى قوله : « إن الرب لن يدع بيت المقدس تظل طويلاً تحت حكم الخطاة والمذنبين » يقصد بذلك حكام المسلمين من المماليك[٥٨] . بل أن الغرب الأوربى كان لا يفتأ يطالب صراحة وفى جرأة ببيت المقدس ، من ذلك ما يرويه المقريزى فى حوادث سنة ٢٣٠ هـ/ ١٣٢٩ م عن وصول سفارة ضخمة من مائة وعشرين رجلاً ، موفدة من قبل ملك فرنسا فيليب السادس دى فالوا « فى طلب القدس وبلاد الساحل ، فأنكر السلطان عليهم ، وعلى مرسلهم وأهانهم ...[٥٩] » . كما سجل لنا ابن فضل الله العمرى الحديث الذى دار بحضوره بين أحد السفراء الفرنسيين وبين السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، بخصوص طلبهم القدس قال فيه الناصر للرسول الفرنسى : « وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتار ، ونحن اليوم بحمد الله صلح ، نحن وإياهم من جنس واحد ، ما يتخلى بعض عن بعض ..[٦٠] »

هذا إلى جانب النشاط الصليبى فى شرق البحر المتوسط ، وخاصة بعد أن تولى بيت لوزنيان عرش جزيرة قبرص ، سنة ١١٩٢ م – هذا البيت الذى أفقد صلاح الدين عرش مملكة بيت المقدس سنة ١١٨٧ بعد معركة حطين الشهيرة – ومنذ ذلك العهد غدت قبرص حجر الزاوية فى الحروب الصليبية ، فقد أسهمت قبرص فى الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة والقاصدة دمياط ، ثم فى عهد بطرس الأول ملك قبرص (١٣٥٩ – ١٣٦٩) م أنشأ الملك القبرصى طائفة من أجل فلسطين أطلق عليها اسم « طائفة السيف » لتخليص الأرض المقدسة من قبضة المماليك ، وفى عهده تمت آخر محاولة صليبية لتنفيذ الفكرة الفرنسية القديمة ، القائلة بوجوب الاستيلاء على مصر أولاً وتحطيم قوتها ، تمهيداً لهدم القوى الإسلامية العربية فى الشرق الأدنى واسترجاع بيت المقدس[٦١] . ونقصد بذلك قيام بطرس الأول بحملته الشهيرة على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م . ويصور لنا القلقشندى مدى خطورة الوضع فى ذلك الوقت فى حديثه عن الرسالة التى بعث بها صاحب غرناطة السلطان أبو عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر ، إلى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين يقول فيها : « اتصل بنا مارامت الروم من المكيدة التى كان دفاع الله من دونها سداً

والملائكة جنداً ، والعصمة سوراً ، والروح الأمين مدداً منصوراً ، وانها استنفدت الوسع فى احتشادها ، حتى ضاقت اللجج عن أعوادها .. حتى غص كافر البحر بكفارها ، يصبح بهم التأليب ، ويذمرهم الصليب/ وقد سول لهم الشيطان كياد ثغر الاسكندرية ، شجا صدروهم ، ومرمى آمال غرورهم ، ومُحَوَّم قديمهم ، ومتعلل غريمهم ، ليهتموا ثغر الإسلام بصدمتها ، ويقودوا خبائب الساحل فى رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعرة ، ويتلقفوا فى القدس كرة الكرة ، ويقلصوا ما امتد من ظلال الإسلام ، ويشيموا سيوف التغلب على الشام ، ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم ، وحجهم ومزارهم ، وبيت ربهم الذى يقصدونه من كل فج عميق ..[٦٢] »

من هذا يتضح لنا أن السلطان الأشرف شعبان كان مدركاً لذلك الخطر المحدق بالإسلام والمسلمين فضلاً عن أن هذه الحادثة كانت « من أشنع ما مر بالاسكندرية من حوادث ومنها اختلت أحوالها ، واتضعع أهلها وقلت أموالهم ، وزالت نعمتهم[٦٣] » . وهذا ما حدا به إلى رفع مدينة الاسكندرية إلى نيابة بعد أن كانت ولاية ، ولعل السبب نفسه هو الذى دفعه إلى تحويل بيت المقدس إلى نيابة لأنه خشى أن يحل ببيت المقدس ما حل بمدينة الاسكندرية .

ومما لا شك فيه أنه كان من العوامل التى شجعت السلطان الأشرف شعبان على تحويل بيت المقدس إلى نيابة ، حالة الاستقرار التى تمتعت بها البلاد بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، عقب تخلصه من سيطرة الأمراء المماليك وخاصة الأمير طيبغا الطويل ، ويبلغا العمرى وهو الأتابك واسندمر الناصرى ، والأمير طغيتمر النظامى ، ويؤكد ابن تغرى بردى هذه الحقيقة بقوله إنه ابتداء من سنة ٧٦٩ هـ/ ١٣٦٧ م « قوى أمر الملك الأشرف فى السلطنة وصار تدبير ملكه إليه يعزل ويولى من غير مشورة الأمراء وصار فى الملك من غير منازع ولا معاند وحسنت سيرته وحبته الرعية إلى الغاية وصار يقصد المقاصد الجميلة كما سيأتى ذكره ..[٦٤] » . كذلك يؤكد ابن اياس تلك الحقيقة بقوله : « وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجاريد إلى البلاد الشامية وفساد العربان ، هذا فضلاً عن اتصافه بالحكمة وحسن السياسة فقد ساس الناس فى أيام دولته أحسن سياسة[٦٥] » .

فإذا أضفنا إلى العوامل السابقة عاملاً سنتحدث عنه بالتفصيل فى الصفحات التالية ألا وهو توافر أعداد من أمراء المماليك بمدينة بيت المقدس ، سواء الذين فضلوا الإقامة بها لبعدها عن العاصمة وتقلبات الأحوال السياسية ، أم الذين نفوا إليها والذين تزخر بهم المصادر المعاصرة ، لأدركنا أنه توفر بالمدينة أحد العناصر العسكرية[٦٦] التى يمكن الركون إليها لحمايتها إذا ما تعرضت لخطر خارجى ، حتى تصلها النجدة من القاهرة أو دمشق .

هكذا رأينا أنه فى ظل التجارب والأحاسيس التى عاشها السلطان الأشرف شعبان بن حسين ، كان لابد له من الاحتياط والاستعداد ، فاتخذ عدة اجراءات وقائية كان من جملتها رفع مدينة بيت المقدس من الناحية الإدارية إلى نيابة ، على رأسها نائب للسلطان مسئول أمامه عن أمن المدينة وسلامتها ، كما أن هذا التحول كان نتيجة حتمية لطبيعة حكم سلاطين المماليك الذى اعتمد على القوة العسكرية والواجهة الدينية ، والذى انعكس بشكل واضح فى أن التعيين فى الوظائف الدينية

الكبرى فيها بقى من حق السلطان وحده ، وإذا كان تدخل السلطان المباشر فى بعض الأقاليم يرجع لأسباب حربية ، فإن حرصه على التمسك بحقه فى شغل الوظائف الدينية بالقدس يرجع إلى أهميتها الدينية والتى استغلها السلاطين كسند لهم فى ظهورهم بمظهر حماة الإسلام والمدافعين عن مقدساته[٦٧] .

ومن الأمور التى استرعت نظر الباحث فى دراسة تاريخ بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ظاهرة النفى إلى القدس ، فلا تكاد تمر سنة أو بضع سنوات قليلة إلا ونجد فى مصادر ذلك العصر إشارة إلى أن السلطان أمر بنفى أحد المذنبين أو واحد من خصومه إلى القدس . وهنا لابد للباحث من وقفة لتفسير هذه الظاهرة . كذلك تجب الإشارة إلى أن النفى إلى القدس كان لا يعنى السجن وإنما هو نوع من تحديد الإقامة بحيث يعيش الفرد المنفى حراً طليقاً ، كل ما فى الأمر أنه لا يستطيع الخروج منها إلى غيرها أو مغادرتها إلا بإذن السلطان[٦٨] . وليس أدل على أن بيت المقدس لم تكن سجناً وأن النفى إليها كان نوعاً من تحديد الإقامة مايرويه لنا ابن الصيرفى فى حديثه عن بيبرس بن عبد الله الأمير سيف الدين الأشرفى برسباى خال الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف برسباى أنه « حبس فى الاسكندرية مدة ثم أفرج عنه ورسم له بالإقامة بالقدس بطالا[٦٩] » ، وأيضاً ما يرويه عن الأمير بكلمش العلائى أمير سلاح وكان معاصراً للناصر فرج ابن برقوق « كان معتقلاً فى الاسكندرية ثم أفرج عنه .. ورسم له بالإقامة بالقدس بطالا[٧٠] » ومما يؤكد لنا تلك الحقيقة بما لا يدع مجالاً للشك ما يرويه ابن قاضى شهبه أيام الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية من أنه « نفى الأمير قبقباى رأس نوبة إلى القدس وأعطى له خبزاً يعمل فى السنة عشرين ألف درهم ..[٧١] والمعروف أن كلمة خبز تعنى الإقطاع ، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً من هؤلاء المذنبين ، ومن المغضوب عليهم كانوا قد استصحبوا معهم عائلاتهم وأتباعهم[٧٢] .

كما تجب الإشارة إلى أن بيت المقدس لم يكن المكان الوحيد الذى يمكن أن ينفى إليه المغضوب عليهم فى ذلك العصر ، وإنما كانت هناك أماكن أخرى فى الدولة ، يغلب عليها البعد عن مركز السلطنة من ناحية وقسوة الحياة فيها من ناحية أخرى ، ومن أهم هذه الأماكن كانت مكة والمدينة المنورة والكرك والشوبك[٧٣] . هذا بالإضافة إلى أن الحياة فى مدينة بيت المقدس لم تكن أصعب منها فى بقية المواضع السابق ذكرها ، بل كانت أخفها وطأة وأهونها أمراً نظراً لقربها من مصر من ناحية ، ولاعتدال جوها من ناحية أخرى ، وهذا ما سوف يتضح لنا فى الفصل الرابع من هذا البحث . ونسمع عن كثير من الحالات فى عصر سلاطين المماليك التى طلب فيها بعض المنفيين إلى مكة أو المدينة أو الكرك التخفيف عنهم ، فتوسط لهم بعض المقربين عند السلطان حتى استجاب للالتماس ، وسمح لهم بالانتقال إلى بيت المقدس يقضون عقوبة النفى فى بيئة أقل قسوة .. ومن ذلك ما يذكره المقريزى عن القاضى زين الدين عبد الباسط ، أنه كان منفياً وأهله إلى مكة ، حتى سمح له السلطان بالانتقال إلى بيت المقدس « فسكن جأشه لأنه كان كثير القلق وهو بمكة[٧٤] » . كذلك يؤكد لنا ابن حجر هذه الحقيقة فى حديثه عن سنة ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م فى سلطنة المنصور على بن الأشرف شعبان بقوله : « وفيها أمر بنفى بيدمر من صفد إلى طرابلس ثم شفع فيه فأقام بالقدس بطالا[٧٥] » .

هذا بالإضافة إلى أن السلطان كان لا يسمح بالنفى إلى بيت المقدس إلا لمن لا يخشى منه خطراً شديداً مباشراً ، فأشد الحالات السياسية خطراً كان صاحبها يسجن ، وغالباً ما يكون سجنه فى مدينة الاسكندرية حتى يكون قريباً بعيداً[٧٦] : قريباً من عين السلطان وملاحظته ومراقبته ، بعيداً عن أن يهدد السلطان تهديداً مفاجئاً ، كأن يقوم بتوجيه ضربة مباشرة سريعة ، يحل بها محل السلطان فى قلعة الجبل بالقاهرة . أما الحالات بين الخطيرة والخفيفة فكان أصحابها ينفون إلى الحجاز أو الكرك أو الشوبك[٧٧] .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يبدو أن أكثر من ثمانين فى المائة من حالات النفى فى عصر سلاطين المماليك استأثرت بها مدينة بيت المقدس وحدها ، وهى نسبة كبيرة دون شك ، وهذا ما يتضح لنا من دراسة بعض المصادر التى ذكرت كثيراً من حالات النفى ، وقد ألحقنا جدولاً فى آخر هذا البحث قمنا فيه برصد الكثير من الحالات التى نفى أصحابها إلى بيت المقدس ، كما تجب الإشارة إلى أننا لا نسمع إلا عن حالات محدودة نادرة نفى أصحابها إلى قلعة دمشق أو حلب ، وفى هذه الحالة الأخيرة كان الوضع أقرب إلى السجن منه إلى النفى ، بل كان سجناً ونفياً فى نفس الوقت[٧٨] .

وهنا لابد من ذكر حقيقة ، وهى أن دولة سلاطين المماليك مهما يبالغ فى تكريمها وتعظيمها والإشادة بالدور الذى نهضت به سياسياً وحضارياً فى أواخر العصور الوسطى ، فإن هذه الدولة عاشت عمرها البالغ قرنين ونصف من الزمان ، على أساس أن جميع الأمراء متساوون فى حق ولاية العرش ، والأمر متروك للقوة العسكرية والدهاء السياسى لحسم الصراع على تولى العرش ، فالمماليك جميعاً سواء ، وكبار الأمراء كلهم سواسية نشأوا نشأة واحدة ، لا فضل لأحدهم على الآخر ، نشأوا فى كنف أساتذتهم الذين نشئوهم نشأة واحدة أو متقاربة اعتقوا وتحرروا فى مرحلة معينة من أعمارهم . كل منهم شق طريقه بعد ذلك وأدرك نصيباً من الحياة يتفق وإمكاناته الذهنية والجثمانية وغيرها . وبناء على ذلك ظهر منهم من وصل إلى درجة أمير كبير ، وهى درجة تؤهله للوثوب إلى منصب السلطنة ، ومنهم من ظل أميراً صغيراً .

فإذا مات السلطان القائم أو قتل ، فالباب مفتوح أمام كبار الأمراء ليحاول كل منهم الفوز بمنصب السلطنة ، مستخدماً طرقه وأساليبه الخاصة ، شريفة كانت أم غير شريفة ، وهذا هو السر فى كثرة الاضطرابات والثورات التى تعرضت لها دولة سلاطين المماليك بين حين وآخر ، والتى يكمن سببها الحقيقى فى إحساس كل أمير بأنه له الحق فى السلطنة[٧٩] ، مما يحرك فيه عوامل الخروج على السلطان القائم . وفى ظل هذا الوضع كان الطامعون فى السلطنة والثائرون عليها لا يجدون أفضل من بلاد الشام لتكون مركزاً ومنطلقاً لحركاتهم ، فلهذه البلاد فى طبيعتها وموقعها وخيراتها وإمكاناتها البشرية ، ما يجعل منها قوة لمن يتحكم فيها ويسيطر عليها . وكان الخارجون على الدولة فى عصر سلاطين المماليك يتخيرون المدن الكبرى فى بلاد الشام – وخاصة دمشق وحلب – مركزاً لحركاتهم ، نظراً لما تتمتع به من ثروة وموقع وحصانة وإمكانات متعددة . ومن هذه المراكز كثيراً ما كانوا يشرعون فى الزحف على القاهرة ، لأن سلطنة أحدهم « لا تتم إلا بدخوله قلعة الجبل[٨٠] » . ولذا كان سلاطين المماليك يعملون حساباً كبيراً لنوابهم فى تلك المدن الشامية الكبرى ، حتى بلغ

الأمر أن كتاب السر فى النيابات الشامية كانوا يقومون بمهمة التجسس لحساب السلطان فى القاهرة ويطلعونه على ما قد يخفيه النواب عنه أو يبيتونه له[٨١] ويؤكد لنا أحد المؤرخين المعاصرين تلك الحقيقة من أنه فى عهد السلطان أبو سعيد جقمق « غضب السلطان على شاد بك الجكمى نائب حماه فعزله عنها وأمره أن يتوجه إلى القدس بطالا وعين مكانه فيها يشبك الصوفى أحد المقيمين بحلب[٨٢] » وفى نفيه إلى القدس دليل على تخوف السلطان منه ومن بقائه فى حماه فربما يتمكن بها من العصيان والثورة ، ولكن إمكانيات القدس كانت لا تسمح بذلك . هذا وإن كنا نسمع عن بعض حالات قليلة تم النفى فيها إلى إحدى المدن الرئيسية فى بلاد الشام[٨٣] . وفى هذه الحالة يبدو أنه كان ينفى إليها من لا يخشى بأسه على السلطنة . كذلك لم يكن هناك أنسب من مدينة مثل بيت المقدس يغلب عليها الطابع الدينى ، فضلاً عن أنها محدودة الامكانات البشرية والمادية ، غير مرغوبة لمن يطلب الثراء والجاه ، غالبية سكانها من أهل العلم والدين وليسوا من أهل الحرب والسلاح[٨٤] . هذا بالإضافة إلى ما سوف يتضح لنا من خلال حديثنا فى الفصول التالية عن الحياة الاقتصادية فيها ، من أنه لم يكن فيها موارد طبيعية ضخمة تعتمد عليها وتستغنى بها عن غيرها ، مما يجعلها عاجزة عن مقاومة حصار طويل يفرض عليها فى حالة ثورتها ، لذا لم نسمع فى تلك العصور من خلال دراستنا للمصادر المختلفة التى تحدثت عنها والتى استخدمناها فى كثير من فصول هذا البحث العربية والأجنبية عن قيام حركة ثورية بها ضد السلطة المركزية فى مصر .

ولعل أول ما يسترعى انتباهنا فى حكم سلاطين المماليك لمدينة بيت المقدس ، هو حرص السلاطين الدائم على إبطال المظالم من المدينة المقدسة ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين أنه فى عهد السلطان الظاهر برقوق وفى سلطنته الثانية ، أبطلت المظالم والرسوم والمكوس التى أحدثها النواب بالقدس[٨٥] . ومن ذلك أيضاً أن السلطان سيف الدين قطز عندما مر بمدينة بيت المقدس عام ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١ م أمر بإبطال المغارم التى كان نائب المدينة قد فرضها على أهلها ، ونقش ذلك على حجر بالمسجد الأقصى[٨٦] . وجدير بالذكر أن رفع المظالم فى هذه المدينة لم يختص به المسلمون وحدهم بل شمل إخوانهم المسيحيين أيضاً ، من ذلك أنه فى عهد الملك الظاهر أبى سعيد جقمق برز مرسوم السلطان بإبطال ما أحدثه نائب بيت المقدس من ضمان دير الأرمن بالقدس الشريف[٨٧] . ويرجح أن تكون تلك المظالم التى كان يحدثها النواب بسبب سوء الأحوال الاقتصادية التى شهدتها الدولة بوجه عام ، فضلاً عن السياسة التى أتبعها السلاطين المتأخرون فى تولى الوظائف عن طريق البذل والبرطلة ، والتى سنتحدث عنها بالتفصيل فى الفصل الخاص بالحياة اليومية والأمراض الاجتماعية .

كذلك مما يؤثر عن سلاطين المماليك اهتمامهم بانتقاء الحكام والقضاة لبيت المقدس ومراقبتهم ، وحرصهم على تغيير هؤلاء الحكام فى حالة عجزهم أو تعسفهم ضد الرعية من سكان بيت المقدس ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين فى حديثه عن أن الأمير « خشقدم نائب السلطنة بالقدس الشريف ولى النيابة فى دولة الملك الظاهر جقمق وباشر بشهامة وحصل منه عسف للرعية فوثب أهل بيت

المقدس وشكوه للسلطان فعزله وطلب إلى القاهرة ..[٨٨] » ، وكذلك ما حدث فى عهد السلطان الأشرف قايتباى حيث « رفع سكان القدس شكواهم إلى السلطان ضد نائبه فى القدس خضر بك ، لأن هذا كان ظالماً وكان سفاكاً للدماء . فحقق السلطان فى شكواهم ، ولما تأكد من صحتها استحضره إليه فضربه ، ثم أقاله . ولم يكن خلفه « دقماق » بأعدل منه ، أو أحكم . بل كان هو أيضاً ظالماً ، فثار المقدسيون ضده ، وظلوا يلحون على السلطان إلى أن أقاله من منصبه ..[٨٩] » هذا ويؤثر عن هذا السلطان اهتمامه بانتقاء حكام بيت المقدس وتدخله بنفسه لحسم أى خلاف ، من ذلك أنه عندما خرج لزيارة المدينة عام ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م حرص على أن يستمع إلى الأهالى فى شكواهم من نائبه جارقطلى الظاهرى ، وحكم لهم ، وأمره برد ما أخذه منهم ، كما نفى القاضى غرس الدين خليل من بيت المقدس عندما شكاه أهلها[٩٠] .

الوظائف فى بيت المقدس

كان فى مدينة بيت المقدس عدد من الموظفين على عصر سلاطين المماليك ، الذين يمكن أن نصنفهم إلى ثلاثة أنواع هى : أرباب السيوف ، وأرباب الأقلام ، وأصحاب الوظائف الدينية :

١ – أرباب السيوف :

١ – الوالى أو النائب :

سبق لنا أن أشرنا أن مدينة بيت المقدس منذ العهد الأيوبى حتى بداية الحكم المملوكى كانت تناط بعهدة أمير من أمراء السلطان يطلق عليه وال[٩١] . وظل الأمر كذلك حتى تحولت المدينة عام ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م إلى نيابة ، فأصبح يطلق عليه لقب « نائب[٩٢] » ، وفى الفترة التى سبقت تحولها إلى نيابة كان هذا الوالى يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة فى دمشق وإن كانت المصادر لم تشر إلى رتبته[٩٣] .

أما عن اختصاصات النائب ، فإنه كان يمثل السلطان وينوب عنه فى حكم المدينة ، الذى يصوره لنا ابن فضل الله العمرى فى أنه « سلطان مختصر فيما هو ناء عن الحضرة وأن النائب هو المتصرف المطلق فى كل أمر » ، وكان يراجع فى كل ما يتعلق بشئون الجيش والمال وهو المسئول عن البريد والأخبار ، وهو رئيس الموظفين فى نيابته ومرجعهم « وكل ذى وظيفة فى نيابة لا يتصرف إلا بأمره ، ولا يفصل أمراً معضلاً إلا بمراجعته .. ويرتب فى الوظائف ..[٩٤] » . كما نستطيع أن نستخلص من كتب التقليد التى كان يصدرها أحد السلاطين عند تعيينه لنائب جديد ، أن من واجبات النائب أيضاً تنظيم الشرع الشريف والعمل على إعلاء كلمته ، وتأليف قلوب الرعية على حب السلطان ، وحماية المملكة التى يحكمها ، وحماية أهل الذمة فيها ما داموا طائعين ، وتأديبهم إذا خرجوا عن الطاعة ، كذلك كان من اختصاصه تولية ولاة الأعمال ، وتولية صغار النواب كالتولية على القلاع والمدن الصغيرة ، وكذلك للنائب أن يولى من يشاء فى الوظائف العادية[٩٥] . وبالإضافة

إلى تلك الصلاحيات كان نائب القدس يقوم بواجبات أخرى ، منها أنه كان ابتداء من سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م وهى السنة الأولى التى تحولت فيها المدينة إلى نيابة يقوم بمهام نيابة مدينة الخليل إدارياً مضافة إلى نيابة القدس ، علماً بأن إضافة بلد الخليل إلى القدس كانت مجرد عادة جارية حتى قبل تحول القدس إلى نيابة ، كما أضيفت إليه مهمة النظر فى الحرمين الشريفين – القدس والخليل .. وبذلك صار يلقب بناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام[٩٦] . إلا أنه فى عام ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م أيام السلطان فرج بن برقوق فى سلطنته الثانية حدث تغيير فى اختصاصات نائب القدس ، فقد قرر السلطان « أن نائب القدس لا يكون ناظراً للحرمين الشريفين » وبهذا فصل الوظيفتين[٩٧] . ولكننا نسمع أنه فى عهد السلطان نفسه وفى عام ٨١١ هـ/ ١٤٠٨ م « خلع على تاج الدين رزق الله ناظر الجيش بدمشق ، واستقر نائب السلطنة بالقدس ، وناظر أوقاف القدس والخليل ، ولم نعهد مثل ذلك أن كاتباً يلى نيابة السلطنة ببلد ..[٩٨] » . ثم نعود ونسمع أنه فى عهد السلطان الأشرف برسباى أن نائب السلطنة بالقدس الشريف عاد ليجمع ما بين النيابة ونظر الحرمين الشريفين فى القدس والخليل[٩٩] . بل أكثر من هذا أنه أصبح يجمع بين عدة وظائف مختلفة . من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين من أن الأمير طوغان العثمانى نائب السلطنة بالقدس الشريف وناظر الحرمين فى القدس والخليل وكاشف الرملة ونابلس ومتولى الصلت وعجلون ، واستادار الأغوار وغير ذلك من التكلم على الجهات السلطانية ، جمع له بين هذه الوظائف فى دولة الملك الأشرف برسباى فى سنة أربعين وثمانمائة وبعدها فى دولة الظاهر جقمق ، وكان من الحكام المعتبرين[١٠٠] .. ولعل الجمع بين تلك الاختصاصات والوظائف كان راجعاً إلى مقدرة بعض الأشخاص ، وإن كان هذا التبديل والتغيير فى وظائف الإدارة دليلاً على تدهور البناء السياسى للدولة فى الشطر الثانى من ذلك العصر . وهو ما سوف يتضح لنا فى الصفحات التالية . وإن كنا نسمع أنه فى أواخر عصر سلاطين المماليك كان تولى بعض الوظائف ومنها نيابة القدس والخليل يتم عن طريق الرشوة والبذل للخزانة السلطانية[١٠١] . وليس هناك تفسير لتلك الظاهرة إلا الانهيار الاقتصادى وما أدى إليه من كساد التجارة وبالتالى قلة موارد السلطنة نتيجة للحصار الاقتصادى الذى فرضه البرتغاليون على التجارة المملوكية فى ذلك الوقت . ومن المهام التى كانت تناط أيضاً بنائب القدس اجتماعه بالحجاج المسيحيين الذين يفدون إلى البلاد لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة ببيت المقدس ، فكان يستقبلهم عند نزولهم من السفن المقلة لهم فى ميناء مدينة يافا ، ويعين لهم حرساً خاصاً لمرافقتهم وحمايتهم أثناء تنقلاتهم فى الأراضى المقدسة[١٠٢] .

ومن الجدير بالذكر أنه منذ استحدثت النيابة بمدينة بيت المقدس ، كان نوابها من أمراء البلخاناه ، وهى مرتبة عسكرية تتيح لصاحبها أن يكون فى خدمته أربعون مملوكاً[١٠٣] . كما كان لأمير الطبلخاناه الحق فى أن تدق على بابه الطبول كما يفعل السلطان وأمراء المئات ، ولكن على صورة مصغرة ، وقد تزيد مرتبة أمير الطبلخاناه من أمير أربعين إلى إمرة سبعين أو ثمانين ، أى أن يكون فى خدمته ما يساوى أحد هذين العددين[١٠٤] . وكما سبق أن أشرنا فإن السلطان المملوكى فى مصر كان يحرص دائماً على تعيين ذلك النائب بنفسه ، إلا أنه وجدت بعض الحالات التى نسمع فيها أن السلطان كان

يترك ذلك الحق لنائب دمشق . من ذلك ما يرويه ابن تغرى بردى فى ذكره لحوادث سنة ٨٦٥ هـ/ ١٤٦٠ م أيام السلطان خشقدم ، من أن السلطان المذكور أذن لجانم نائب الشام أن يولى من يشاء ويعزل من يشاء حتى كاشف الرملة ونائب القدس وأمثالهما ، وأنه ليست على يده يد فى ولاية نيابة دمشق ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى العلاقة الوطيدة التى تربط السلطان بأحد كبار الأمراء أو كنوع من التكريم وربما لاستمالته أو خشية بأسه[١٠٥] .

أما فيما يتعلق بدار النيابة بمدينة بيت المقدس فى ذلك العصر ، وهى موضع سكن النائب ، فيرى أحد الباحثين أن أول ذكر لها كان عام ٨٩٢ هـ/ ١٤٨٦ م[١٠٦] . غير أنه من المرجح أن نائب القدس كان يتخذ من القلعة بها داراً للنيابة ، حيث وردت إشارة بذلك عند مجير الدين يقول فيها : « وكان الولى بالقدس قديماً ينزل بالقلعة » مما يرجح القول بأنه عندما تحولت إلى نيابة لم يتغير الوضع وظل النائب ينزل أيضاً فى القلعة لفترة سابقة للتاريخ المذكور ، وهذا ما يفهم من كلام مجير الدين فيما أورده من حديث عن دار النيابة بقوله : « ثم دخلت سنة ٨٩٢ هـ وفيها عمر الأمير خضر بك نائب القدس بدار النيابة المقعد الملاصق لإيوان الحكم من جهة الشمال وجعله على طريق مجالس الحكام بالدار المصرية وسقفه بالخشب المدهون ، وكان قبل ذلك جلوس النائب بصدر الإيوان فصار جلوسه بالمقعد وهو أولى من النظام الأول .. » ، كذلك أورد لنا فى حديثه عن نائب السلطنة الأمير شاهين المشهور بالذباح أنه « أمسك جماعة من العرب وذبحهم عند باب دار النيابة بالقدس .. وكانت ولايته فى دولة الملك الأشرف برسباى فى حدود الثلاثين والثمانمائة[١٠٧] » ..

ومن المرجح أيضاً أن دار النيابة فى بيت المقدس لم تكن لتستمر فى مكان بعينه طوال عصر سلاطين المماليك ، ودليل ذلك ما يرويه مجير الدين نفسه فى حديثه عن الأمير الكبير علم الدين أبو سعيد سنجر بن عبد الله الجاولى الشافعى (ت ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤ م) ، من أنه بنى مدرسة بالقدس صارت فى عصر مجير الدين سنة ٩٠١ هـ/ ١٤٩٥ م سكناً للنواب بالقدس الشريف[١٠٨] . أما عن وصف دار النيابة أو سكن النائب فى المدينة ، فقد أورد لنا أحد الرحالة الذى زار المدينة عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م وهو كازولا وصفاً له فى عبارة موجزة قائلاً إن بيت نائب القدس هو أجمل المنازل فى المدينة وأتقنها[١٠٩] .

٢ – والى أو نائب القلعة :

كانت هذه الوظيفة تأتى بعد نائب السلطنة فى الأهمية ، ومن المرجح أنه حدث تطور فى هذه الوظيفة سواء من حيث اللقب الذى يطلق على متوليها أو رتبته العسكرية ، فبينما يشير القلقشندى فى حديثه عن اللقب الذى كان يطلق على متوليها بقوله : « ولاية قلعة القدس ، ووالياها جندى » .. مما يفهم منه أنه كان يطلق على من يتولاها لقب « وال[١١٠] » فإن مجير الدين فى حديثه عن الوظيفة ومتوليها يقول أنه « كانت تدق فيها الطبلخاناه فى كل ليلة بين المغرب والعشاء على عادة القلاع بالبلاد وقد تلاشت أحوالها فى عصرنا وتشعثت وبطل منها دق الطبلخاناه وصار نائبها كأحد الناس

لتلاشى الأحوال[١١١] » .. ومنه يفهم أنه كان يطلق على متوليها لقب « نائب » ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم تشر المصادر إلى رتبة متوليها وعدد المماليك الذين كانوا فى خدمته ، مما يرجح معه أنه كان من صغار أمراء الطبلخاناه حيث كان يدق على بابه الطبول . كذلك تجب الإشارة إلى أنه يرجح أنه أطلق عليه لقب « نائب القلعة » بعد تحول مدينة القدس من مجرد ولاية تابعة لدمشق إلى نيابة ، كما سبقت الإشارة بذلك[١١٢] . كما تجب الإشارة أيضاً إلى أنه فى أواخر عصر سلاطين المماليك قل الاهتمام بقلعة المدينة وكذلك واليها وهو ما أشار إليه مجير الدين ، ولعل ذلك راجع إلى شعور سلاطين المماليك بعدم وجود أخطار حقيقية تهدد أمن المدينة بسبب خفة وطأة الحروب الصليبية وانشغال الغرب الأوربى بمشاكله الخاصة ، أو بسبب الظروف الاقتصادية السيئة التى أخذت تعانى منها دولة سلاطين المماليك ، والتى سبق أن أشرنا إليها .

كذلك يفهم مما أورده القلقشندى فى حديثه عنها : « وكانت توليتها أولاً من جهة نائب السلطنة بدمشق ثم أخبرنى بعض أهل المملكة الشامية أن ولاية والى القلعة وولاية البلد صارتا إلى نائب القدس من حين استقر نيابة » يقصد سنة ٧٧٧ هـ[١١٣] . وبذلك كان نائب السلطنة فى القدس هو الذى يقوم بتولية والى القلعة أو نائب القلعة كما كان يطلق عليه ذلك أحياناً[١١٤] . ويفهم من المرسوم الصادر لتولى هذه الوظيفة بعض المهام التى كان يكلف بها نائب القلعة بالقدس فى ذلك العصر ، وهى أنه يجب عليه أن يواظب على حفظ القلعة ويتفقد أسوارها ورجالها وعددها وأن يدافع عنها ضد الأعداء ، وأن يرعى الله دائماً فى كل أحواله حتى يكون له عوناً ونصيراً[١١٥] . ومن المرجح أن يكون نائب القدس قد وضع نصب عينيه – فى اختياره من يشغل الوظيفة – الطابع العام للمدينة بحيث كان يتوسم فيه الصلاح والخير وإن كانت مهام منصبه عسكرية أساساً[١١٦] .

٣ – والى المدينة :

ومن الوظائف العسكرية أيضاً – أى وظائف أرباب السيوف – تأتى وظيفة والى المدينة ، ويشير القلقشندى أن واليها جندى « أى من أرباب السيوف ، وكانت توليته من قبل نائب السلطنة بدمشق عندما كانت بيت المقدس ولاية تابعة لها ، وعندما تحولت القدس إلى نيابة أصبح نائب القدس هو الذى يختار من يشغل هذه الوظيفة من بين المماليك[١١٧] . ومع أن المصادر والمراجع التى بين أيدينا لم تعطنا فكرة واضحة عن وظيفة هذا الوالى ، أو المهام التى كان يقوم بها فى مدينة بيت المقدس ، إلا أننا نستطيع القول أنها لم تختلف عن غيرها فى المدن التى خضعت لحكم سلاطين المماليك سواء فى مصر أم فى بلاد الشام ، من حيث أن المهمة الرئيسية لهذا الوالى كانت الإشراف على شئون مدينة بيت المقدس ، وتعقب المفسدين فيها ، وحماية أهلها من الأشرار والعابثين . كذلك كان من اختصاص هذا الوالى « الفحص عن المنكرات من الخمر والحشيش ونحو ذلك ، وسد الذريعة فيه ، والستر على من ستره الله تعالى من أرباب المعاصى ، وإقالة ذوى الهيئات عثراتهم . وليس له أن يتجسس على الناس ويبحث عما هم فيه من منكر ، ولا كبس بيوتهم بمجرد القال والقيل[١١٨] » ..

ولما كان على الوالى أن يراقب هؤلاء الأشرار مراقبة تامة ، فقد كانت مهمته الأولى هى الحفاظ على الأمن ، الأمر الذى أوجب عليه أن يقوم بنفسه بتفقد الشوارع والحارات فى الليل ، ومن المؤكد أنه كان له أعوان يتنقلون فى أنحاء المدينة لينقلوا إليه الأخبار ، ومن المرجح أيضاً أن يكون هو نفسه صاحب الشرطة فى المدينة حيث نجد إشارة لدى مجير فى حديثه عن أسماء من ولى النظر والنيابة بالقدس والذين لم يستوعب أسماءهم ولا تراجمهم حيث اعتقد أن ذلك « تطويل لا طائل تحته خصوصاً حكام الشرطة من النواب[١١٩] » .. كذلك كان مسئولاً عن الحجاج الذين يفدون إلى المدينة وسلامتهم طوال مدة إقامتهم[١٢٠] .

كذلك تجب الإشارة إلى أنه كان من سلطات الوالى أن يعاقب أهل الجرائم وقد حددت بعض كتب المعاصرين بعض طرق العقاب « وليس للوالى غير أن يجلدهم فقط بسوط معتدل بين القضيب » أى الغض « والعصا ، لا رطب ولا يابس ، ويفرق السياط على الأعضاء ، ويتقى الوجه والمقاتل ، ولا يتقى الرأس[١٢١] » ..

ومن خلال نسخة توقيع بولاية القدس أوردها القلقشندى يتضح لنا أنه ربما كان يفضل لتولى هذه الوظيفة من هم من أبناء القدس أى الذين عاشوا فيها وربما تربوا فيها من المماليك ، حيث يقول أنه كان يشترط فيه أن يكون عارفاً بوجوه المصالح حتى يكون السكن أعرف بشمس بلده[١٢٢] » ..

٤ – الحاجب :

كانت هذه الوظيفة من وظائف أرباب السيف التى يتولاها أحد أمراء المماليك وكانت مهمة الحاجب متشعبة منها ما يختص بالمماليك أنفسهم ، حيث كان « ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب[١٢٣] » ، هذا بالإضافة إلى أنه من المرجح أنه كان يعرض على نائب السلطنة من يرد إلى المدينة من المماليك ومن يغادرها منهم وبخاصة من المنفيين إليها أو الذين انتهت مدة نفيهم فيها وهذا ما يفهم من العبارة التى أوردها القلقشندى فى قوله : « وإليه تقديم من يعرض ومن يرد[١٢٤] » .. كذلك دخل ضمن اختصاصه بعض الأمور التى تتعلق بأهل المدينة أنفسهم ، من ذلك « أنه كان يحكم بين الناس وترفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها[١٢٥] » .. ، ولعل المقصود بذلك أنه كان ينوب عن نائب السلطنة فى النظر فى بعض المظالم حسبما يفهم من العبارة السابقة التى أوردها مجير الدين .

كذلك من المرجح أنه كان فى بيت المقدس أربعة حجاب مثل غيرها من نيابات بلاد الشام ، وعلى رأسهم ما يسمى حاجب الحجاب أو أمير حاجب ، حيث ورد ذكر هذا اللقب عند مجير الدين إذ يقول : « وكان بالقدس الشريف فيما تقدم أمير حاجب على عادة غيره من البلاد وكان يحكم بين الناس ويرفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها[١٢٦] » . ويبدو أن هذه الوظيفة كانت موجودة فى بداية عصر سلاطين المماليك ثم ألغيت بعد ذلك وبخاصة فى عصر السلطان الأشرف إينال حوالى عام ٨٦٠ هـ حسبما يروى مجير الدين فى حديثه عنها[١٢٧] . مما يرجح قولنا

السابق أن مهمة الحاجب كانت النظر فى بعض المظالم نيابة عن نائب السلطنة ، وهذا ما يشير إليه مجير الدين من أنه بعد أن تم إلغاء هذه الوظيفة – وإن لم يذكر السبب فى ذلك – فقد « اختص الحكم بنواب القدس نحو الستين والثمانمائة[١٢٨] » .

٥ – كاشف بيت المقدس :

والمقصود بكاشف بيت المقدس فى ذلك العصر هو تلك الوظيفة التى كان يختص بها أحد أمراء الطبلخاناه من المماليك ، الذى كان يتم تعيينه عن طريق نائب القدس ومهمته فى أساسها هى التحدث فى جسورها وأراضيها وسائر متعلقاتها وأحوالها[١٢٩] . وعلى هذا الأساس فهى من الوظائف التى تولاها أرباب السيوف الذين لا يحضرون مجلس السلطان ، وكانت مهمة متوليها الأساسية هى الإشراف على جميع البلاد التى يتولى كشفها ورعاية الجسور فيها وسائر الأمور المتعلقة بأراضيها ، كذلك كان يطلق عليه أحياناً لقب والى الولاة[١٣٠] . كذلك كانت هناك بعض حالات كان السلطان يقوم بنفسه باختيار من يتولى هذه الوظيفة وهذا ما يؤكده أحد المؤرخين المعاصرين[١٣١] .

٦ – ترجمان القدس :

كان فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ترجمان ، نظراً لأعداد الحجاج المسيحيين الذين يفدون من الغرب الأوربى عليها ، وكان هذا الترجمان هو أحد المماليك الذين اعتنقوا الإسلام ، والذى كانت مهمته استقبال الحجاج والرحالة الأجانب بيافا والقدس ، وإثبات شخصية كل منهم فى بطاقة خاصة ، ثم ترسل نسخة منها إلى كبير التراجمة فى القاهرة لعرضها على السلطان[١٣٢] . ومن الطبيعى أن يكون لدى هذا الترجمان معرفة ببعض اللغات حتى يتفاهم مع هؤلاء الزوار ، وييسر لهم الإقامة فى المدينة أثناء فترة تواجدهم بها[١٣٣] ، فضلاً عن أنه كان له مساعد يساعده فى مهام أعماله وهو الذى أطلق عليه فيلكس فابرى اسم (الفاهالو[١٣٤]) .

ب– أرباب الأقلام :

١ – المحتسب :[١٣٥]

كان المحتسب أيام سلاطين المماليك فى مدينة بيت المقدس – وفى غيرها من المدن الإسلامية التى خضعت لحكمهم – واحداً من أوسع موظفى الدولة نفوذاً ، لأنه كان يناط به كثير من المسئوليات المتعددة والمتشعبة الجوانب والتى نستطيع أن نلخصها من خلال نسخة توقيع أوردها القلقشندى عن المحتسب فى بلاد الشام فى ذلك العصر ، حيث عهد إليه بحماية الجمهور من الغش والظلم ، والتأكد من توافر السلع الاستهلاكية ويمنع حالات الغش أو الاحتكار فيها ، ومفاجأة الأسواق والتأكد من نظافتها ، إلى جانب العمل على حماية المارة فيها ، فضلاً عن تفقد المساجد للتأكد من أن المشرفين عليها قاموا بنظافتها وحسن استخدامها ، وحماية الأطفال من الضرب على أيدى معلميهم ، فضلاً عن إشرافه على الأطباء والكحالين والجرائحية والصيادلة بالإضافة إلى أرباب الحرف الأخرى[١٣٦] ، هذا

بالإضافة إلى إشرافه على سك النقود من الذهب والفضة وكذلك موارد المياه فى المدينة[١٣٧] . كذلك يفهم مما رواه ابن الاخوة عن وظيفة الحسبة ، أن المحتسب كان له بعض الإشراف على أهل الذمة حيث يمنعهم من إحداث الكنائس والبيع ويأخذ منهم الجزية على قدر طاقتهم[١٣٨] .

كذلك جرت العادة بأن يكون للمحتسب بعض المساعدين والذين يختارهم ممن لهم دراية ببعض الحرف وهم الذين أطلق عليهم لقب « العرفاء » ، وهؤلاء العرفاء كانوا يختارون من بين أصحاب الحرف ، والذين يقومون بمساعدته ، وتقديم النصح له بخصوص بعض المعاملات التجارية ، وإعطائه فكرة عن أحوال السوق[١٣٩] ، كذلك كانوا يبلغون أصحاب الحرف المختلفة كل ما هو مطلوب منهم من واجبات والتزامات ، وربما كانوا يعفون من الضرائب مقابل ما كانوا يقومون به من خدمات أو من جزء منها[١٤٠] .

كما تجب الإشارة إلى أن المحتسب كانت له سلطة تنفيذية كسلطة القضاء وإن كانت العقوبات التى يفرضها لا تبلغ عقوبات الحدود ، وتختلف بحسب الذنب ، وهو ما أطلق عليه التعزير[١٤١] . فكان المحتسب يعقد محاكماته فى مكان معروف باسم دكة المحتسب ، وقد يكون هذا المكان داخل المسجد الأقصى ، ويتخذ الضرب وسيلة للتعزير وذلك عن طريق آلات الضرب مثل السوط والدرة التى تتخذ من جلد البقر أو الجمل المخروزة ، والمقرعة وهى قطعة غليظة من فرع شجرة[١٤٢] .

وفى بداية عصر سلاطين المماليك كان المعين لهذه الوظيفة يختار بدقة ، كما كان يعين أولاً وقبل أن تصبح نيابة من قبل نائب السلطنة فى دمشق بحيث ينوب عن محتسب دمشق ، ثم لما تحولت القدس إلى نيابة أصبح يتم تعيينه من قبل نائب السلطنة فى القدس[١٤٣] . كما لم يكن فى مدينة بيت المقدس إلا محتسب واحد نظراً لصغر حجمها ، فضلاً عن أن تولى هذه الوظيفة قد ظل بيد نائب القدس حتى سنة ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م فى عهد السلطان الأشرف قايتباى حيث ألغى تولية الحسبة من نائب القدس لما فرضه عليها من أموال واستمر الحال كذلك مدة ، بحيث كان يتم تعيينه من قبل السلطان « بمرسوم بغير كلفة وبقى هذا مدة ثم اختل النظام[١٤٤] » . وفى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك صار من المألوف أن يجمع شخص واحد بين الحسبة وغيرها من الوظائف ، كما صارت وظيفة الحسبة تشترى بالرشوة بعد أن كان يتولاها الفقهاء وصار هذا المنصب « فى الشهر الواحد يليه ثلاثة أو أربعة ، وسبب ذلك أنهم فرضوا على المنصب مالاً مقرراً ، فكان من قام فى نفسه أن يليه يزن المبلغ المذكور ويخلع عليه ، ثم يقوم آخر فيزن ويصرف الذى قبله[١٤٥] » . وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن هذه الوظيفة فقدت رونقها وسطوتها فى خضم التدهور العام الذى كانت دولة سلاطين المماليك تعانى منه فى عصر الجراكسة[١٤٦] .

٢ – وكيل بيت المال :

وردت إشارة واحدة عند مجير الدين عن وكيل بيت المال بالقدس ، فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، حيث يقول : « الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن خضر القدسى وكيل

بيت المال بالقدس الشريف وهو الذى فوض إليه الملك صلاح الدين بيع الأملاك الخاصة ببيت المال بالقدس الشريف ثم اشترى منه كنيسة صند حنا وهى المدرسة الصلاحية والجهات التى وقفها عليها[١٤٧] » .. ومن المعروف أن سلاطين المماليك ساروا على سياسة الأيوبيين ونظمهم الإدارية ، لذا فمن المرجح أن تكون هذه الوظيفة قد ظلت قائمة فى بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك ، ولسنا ندرى هل كان تولى هذه الوظيفة يتم عن طريق نائب بيت المقدس أم عن طريق السلطان ، لأن القلقشندى يعتبر هذه الوظيفة من الوظائف المتوسطة « فتارة يولى فيها السلطان ، وتارة يولى فيها النواب . إلا أن تولية السلطان فيها فى النيابات الكبار كالشام أكثر[١٤٨] » .. ومن المرجح أنها كانت موجودة ببيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ، لأننا نراه يتحدث عن هذه الوظيفة فى بلاد الشام بوجه عام فيقول : « وهى وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر ، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وآدر وغير ذلك ، والمعاقدة على ذلك وما يجرى هذا المجرى .. ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ، ومجلسه بدار العدل وتارة يكون دون المحتسب ، وتارة فوقه بحسب رفعة قدر كل منهما فى نفسه[١٤٩] » .

والمعروف أن القلقشندى كان معاصراً لعصر سلاطين المماليك حتى الربع الأول من القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى ، فلو أن هذه الوظيفة ألغيت فى بيت المقدس لوجدناه قد ذكر ذلك .

ومن الطبيعى أن يقوم بمساعدة وكيل بيت المال بعض الموظفين الآخرين فى عمله ، مثل « العامل » الذى كان ينظم الحسابات و « الصيرفى » الذى كان يتولى قبض المال وصرفه بمعاونة الصيارفة ، وكذلك بعض الموظفين الذن كانوا يقومون بعمل ما نطلق عليه فى عصرنا الحاضر الأرشيف وهم كتاب الدرج[١٥٠] .

٣ – نقابة الأشراف :

يقول القلقشندى عن هذه الوظيفة « وهى وظيفة شريفة ، ومرتبة نفيسة ، موضوعها التحدث على ولد على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه من فاطمة بنت رسول الله ﷺ – وهم المراد بالأشراف ، فى الفحص عن أنسابهم والتحدث فى أقاربهم والأخذ على يدى المتعدى منهم ونحو ذلك ، وكان يعبر عنها فى زمن الخلفاء المتقدمين بنقابة الطالبيين[١٥١] » .

ويبدو أن ولايتها كانت من نائب بيت المقدس على نحو ما ذكر فى دمشق . ويروى لنا ابن تغرى بردى فى ذكر وفيات سنة ٧٩٨ هـ أن نقيب الأشراف السيد الشريف صدر الدين مرتضى بن الشريف غياث الدين ابراهيم ابن حمزة الحسنى العراقى كان قد « ولى نظر وقف الأشراف مع نقابة الأشراف ونظر القدس والخليل » ، وفى هذا تأكيد أن مهمة نقيب الأشراف لم تكن فقط هى الإشراف على طبقة الأشراف بل ورعاية مصالحهم الاقتصادية أيضاً[١٥٢] .

٤ – ناظر كنيسة القيامة :

من الوظائف التى عرفت فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك وظيفة ناظر كنيسة القيامة ، والذى يذكره لنا الرحالة كازولا الذى زار بيت المقدس عام ١٤٩٤ م تحت اسم Abrayano[١٥٣] ، والذى كان يشرف على أعداد الحجاج المسيحيين الواصلين إلى الكنيسة والزوار ، وهو الذى يقوم بتحصيل ما يسمى « موجب السلطان » بعد أن يدون كل منهم بعض المعلومات الشخصية عن نفسه من ذكره لإسمه واسم عائلته وسنه وجنسيته وطوله والعلامات المميزة له ، كلون العينين ولون الشعر إلى غير ذلك فى نسختين ثم يبصم بيده عليهما ، وتحفظ واحدة منهما فى القدس والأخرى ترسل إلى القاهرة ، وهذا الناظر كان يتبعه عدد من الحراس يبلغ خمسة عشر حارساً . ويرى بعض الباحثين أن المصادر العربية لم تشر إلى تلك الوظيفة ، كما أنه لم يكن معروفاً هل كان من المسلمين أم من المسيحيين المحليين ؟[١٥٤] إلا أننا نرى أن هذه الوظيفة نفسها هى التى أشار إليها القلقشندى تحت اسم « شد متحصل قمامة » وأن متوليها كان من المسلمين بدليل ما ورد فى نسخة التوقيع الخاصة بتولية هذه الوظيفة بأنه على متوليها أن يبدى « رأفة مع ذلك بالظاهرى العجز : ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » .. وأن يكون « عاملاً بتقوى الله تعالى فإن أهل معاملته أهل ذمة[١٥٥] » .. ، كذلك تؤكد لنا المصادر الأوربية بأنه كان من المسلمين هو والحراس الذين يتبعونه[١٥٦] . وهم الذين كانوا يقومون بعد الحجاج عند دخولهم كنيسة القيامة وعند الخروج منها . ومما لا شك فيه أن نائب مدينة بيت المقدس هو الذى كان يعين من يصلح لهذه الوظيفة ، لأنها لم تكن من الوظائف الجليلة حسبما يذكر القلقشندى[١٥٧] . كذلك من المرجح أن يكون قد اشترط لتولية هذه الوظيفة أن يكون شاغلها ملماً ولو بلغة واحدة أجنبية حتى يستطيع التفاهم مع الزوار ، وربما كان يستعين فى ذلك بأحد التراجمة .

جـ – الوظائف الدينية :

١ – القضاء :

لما استرد السلطان صلاح الدين الأيوبى مدينة بيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م ، وكان شافعى المذهب ، لذا فهو أول من أقام المذهب الشافعى فى المدينة بعد وقفه المدرسة الصلاحية وجعلها للشافعية[١٥٨] . ومن المؤكد أن الهدف من إقامة هذه المدرسة كان نشر المذهب الشافعى فى القدس ، لأن القدس قبل قدوم الصليبيين إليها كانت قد خضعت للدولة الفاطمية الشيعية فى مصر . وبذلك أصبح المذهب الشافعى هو المذهب السائد فى القدس منذ العصر الأيوبى ، ومع هذا فإن المراجع تشير إلى وجود مذهب آخر فى ذلك العصر فى مدينة بيت المقدس ألا وهو مذهب الحنفية . فيروى لنا أحد الباحثين فى حديثه عن المدرسة المعظمية التى بناها الملك المعظم عيسى فى القدس سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٥ م أنه « أمر بعمله مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبو العزائم عيسى بن أبى بكر بن أيوب الواقف لهذه المدرسة على الفقهاء والمتفقهة من

أصحاب الإمام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه وأرضاه وذلك فى شهور سنة أربع عشرة وستمائة للهجرة النبوية تقبل الله منه وغفر له وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً[١٥٩] » . ومن المرجح أن يكون أتباع هذا المذهب أقلية بالنسبة للمذهب الشافعى ، لذا لم يكن لأتباع هذا المذهب قاض ، حيث تجمع المصادر المعاصرة كلها على أن أول قاض حنفى وجد بالقدس هو خير الدين العجمى من صوفية خانكاه شيخو بالقاهرة ، وكان ذلك عام ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م فى عهد السلطان الظاهر برقوق[١٦٠] . هذا القاضى نفسه الذى يذكره مجير الدين (قاضى القضاة خير الدين أبو المذاهب خليل بن عيسى بن عبد الله العجمى البايرتى الحنفى الإمام العلامة كان من أهل العلم والدين . قدم من بلاده واختار الإقامة ببيت المقدس وولى قضاء القدس من الملك الظاهر برقوق فى أربع وثمانين وسبعمائة .. توفى بالقدس الشريف فى صفر سنة إحدى وثمان مائة ودفن بمامِلا[١٦١] » .. وبذلك كان أول منصب استحدث فى مدينة بيت المقدس لقضاء الحنفية على عصر سلاطين المماليك ، كما سبقت الإشارة بذلك وتلاه منصب قاضى المالكية فى سنة ٨٠٢ هـ/ ١٣٩٩ م ثم تلاه منصب قاضى الحنابلة عام ٨٠٤ هـ/ ١٤٠١ م[١٦٢] . هذا وتشير بعض المراجع إلى أن قضاء الحنابلة استحدث فى بيت المقدس سنة ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩ م[١٦٣] ، إلا أننا نميل إلى الرأى الأول ، والدليل على صحة ذلك ما يرويه لنا ابن حجر العسقلانى فى ذكره لحوادث سنة ٨١١ هـ/ ١٤٠٨ م أيام الناصر فرج بن برقوق أنه « فى هذه السنة أعيد التجديد بالقدس والرملة للأربع قضاة » وفى هذا تأكيد لوجود قضاة للمذاهب الأربعة فى تلك السنة ولعله قبلها ، هذا فضلاً عن أن ابن حجر كان معاصراً للأحداث التى يرويها هنا فى تلك السنة ، مما يجعلنا نثق فى روايته كل الثقة[١٦٤] .

كذلك تجب الإشارة إلى أن تولية قضاة المذاهب الأربعة فى مدينة بيت المقدس كان من اختصاص السلطان فى القاهرة . وفى هذا تأكيد لما سبق أن أشرنا إليه من سياسة المماليك الدينية وأثرها فى أوضاع بيت المقدس ، ويؤكد لنا القلقشندى ذلك فى حديثه عن الوظائف الدينية أن تولية قضاة القضاة كانت تعتبر من الوظائف الجليلة وأن توليتها يختص بها السلطان وحده ، أما فيما عدا ذلك من وظائف كقضاة العسكر ، وإفتاء دار العدل ، والحسبة ، ووكالة بيت المال ، ومشيخة الشيوخ ونحو ذلك ، فتارة يولى فيها السلطان ، وتارة يولى فيها النواب[١٦٥] .

هذا بالإضافة إلى أن قاضى الشافعية فى القدس كان عادة ما يجمع بين قضاء القدس والرملة ، كذلك كان يجمع بين قضاء القدس الشريف ونابلس وفاقون وجينين وأعمالها ، فضلاً عن أن منصب القضاء كان يتوارثه الأبناء عن الآباء[١٦٦] ، كذلك كان القاضى الشافعى كثيراً ما يجمع بين منصب القضاء والخطابة ببيت المقدس[١٦٧] . هذا فضلاً عما تشير إليه المصادر المعاصرة من تحول كثير من القضاة بل وطلبة العلم من مذهب إلى مذهب آخر ، كأن يتحولوا من المذهب المالكى إلى الشافعى ، وربما كان السبب وراء هذا التحول هو كثرة ما يحصلون عليه من أموال لكثرة الأوقاف المحبوسة على أبناء ذلك المذهب[١٦٨] .

وكثيراً ما تطالعنا المصادر المعاصرة بأن بعض القضاة كان يباشر مهام منصبه بهمة ونشاط

وشهامة ، وأن له هيبة عند الناس والحكام وأنه نفذ أمره فى كثير من الأمور الدنيوية ولدى أرباب الحرف ، ومنهم من كان عفيفاً فى مباشرته لا يتناول غير معلومه المرتب على أحد الأوقاف والذى قد يصل إلى عشرة دراهم فضة كل يوم مما كان له أكبر الأثر فى نفوس معاصريهم ومهابة لدى السلطات[١٦٩] . إلا أننا قليلاً ما نسمع عن سعى بعضهم لتولى تلك الوظائف ببذل المال والرشاوى ، مثال ذلك ما رواه المقريزى سنة ٧٤٦ هـ/ ١٣٤٥ م أيام السلطان شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون من أن ابن سالم قاضى القدس « ما زال يسعى بالخدام حتى كتب له توقيع بقضاء القدس ، على ألف وخمسمائة دينار حملها للسلطان ، ومثلها لمن سعى له » ، ويبدو أن دفع تلك الرشاوى قد ظهر بوضوح أيام ذلك السلطان إذ يقول عنه المقريزى : « اشتهر أخذ البراطيل للسلطان ، فقصده كل أحد لطلب الاقطاعات والرزق والرواتب[١٧٠] » .

هذا وتجب الإشارة إلى أن القضاء بين الطوائف المسيحية المختلفة التى عاشت فى بيت المقدس من المماليك كان بأيدى أبناء هذه الطوائف ، إلا فيما يتعلق بما كان يوجد من خلاف بين أبناء هذه الطوائف بعضها وبعض ، وخصوصاً فيما يتعلق بالأماكن المقدسة المسيحية ، فإنهم فى هذه الحالة كانوا يلجأون إلى قاضى القدس المسلم للفصل فيما ينشب من منازعات ، وتشهد بذلك سجلات المحكمة الشرعية بالقدس[١٧١] . أما ما كان يحدث من خلافات بين المسلمين والمسيحيين على اختلافهم ، فكان الفصل فيه يتم على يد القضاة المسلمين ، ولم نسمع عن انحياز هؤلاء القضاء لإخوانهم المسلمين ، ولعل الوثائق التاريخية الموجودة لدى الرهبان الفرنسسكان خير شاهد على مدى ما تمتع به هؤلاء الرهبان من أمن وطمأنينة فى رحاب عدالة القضاء الإسلامى[١٧٢] .

أما فيما يتعلق بالقضاء لدى اليهود ، فيروى لنا الرحالة اليهودى اسحق بن شيلو الذى زار بيت المقدس عام ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٤ م أن جماعة اليهود بها كانوا يشتغلون بكثير من الحرف ، ولكن الجزء الأكبر من علمائهم يصلون الليل بالنهار لدراسة القانون المقدس والحكمة[١٧٣] . مما يفهم منه وجود قضاة لديهم ، كذلك يذكر الرحالة اليهودى موسى بن مناحم الذى زار المدينة أيضاً عام ٨٧٦ هـ/ ١٤٨١ م فى حديثه عن اليهود بها ، أنه كان لهم قضاة يفضون المنازعات التى تنشأ بين طوائف اليهود المختلفة ، وكان يطلق على كل منهم لقب « الشيخ »[١٧٤] . ويؤكد لنا Goitein فى مقالة له أن اليهود كان لهم محكمة خاصة بهم والتى كانت قد تركزت حول الكنيس الخاص بهم ، كما أن القضاة اليهود كانوا من علماء اليهود حسبما تؤكد ذلك وثائق الجينيزا ، ويقصد بها الوثائق التى تم العثور عليها فى مصر وترجع إلى العصور الوسطى ، والتى كتبها اليهود المقيمون بمصر وتتناول مختلف نواحى حياتهم[١٧٥] .

كما يذكر فى مقالة أخرى فى رده على أحد الباحثين قوله « إننى لا أعتقد أن القضاة اليهود كانوا يتلقون أجراً عن أتعابهم عن كل قضية يحكمون فيها .. ولكن عندما يقوم هؤلاء القضاة بتوثيق بعض الوثائق فمن هنا كانوا يتناولون بعض الأتعاب عن كل وثيقة يوثقونها[١٧٦] » ..

وفى هذا خير دليل على أن اليهود فى مدينة بيت المقدس كان لديهم بعض القضاة يتولون القيام

بفض ما قد ينشأ بين أبناء مجموعة اليهود فى المدينة من منازعات ، سواء كانو يحصلون على أجر نظير قيامهم بذلك العمل من الأشخاص الذين يحتكمون إليهم ، أم أنهم عاشوا على ما يقدمه لهم أبناء طائفة اليهود من مساعدات نظير قيامهم بتلك الأعمال[١٧٧] ..

هذا فضلاً عما تشير إليه المصادر اليهودية من أنهم قد نعموا فى ظل الحكم الإسلامى وفى عصر سلاطين المماليك بكثير من التسامح والعدل ، وهذا ما يشهد به كثير من مؤرخى اليهود أنفسهم الذين دونوا مؤلفاتهم عن إخوانهم اليهود فى بيت المقدس والذين عاصروا تلك الفترة[١٧٨] . هذا بالإضافة إلى ما تشير إليه تلك المصادر من أنه كان لهم رؤساؤهم الدينيون فى تلك الفترة من حاخامات ، كذلك وجد لهم رئيس أعلى كان يطلق عليه لقب « الناجد » ، إلا أن أغلبية هؤلاء الرؤساء كانوا من الاشكنازيم وهم يهود شرق أوربا[١٧٩] . هذا فضلاً عما يشير إليه أحد كبار رجال الدين اليهود والذى زار مدينة بيت المقدس عام ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م وهو Elijah of Ferrara بأن عمل هؤلاء الرجال لم يكن قاصراً على مدينة بيت المقدس فقط ، بل إنهم تولوا الرد على كثير من الاستفسارات الفقهية الخاصة بالعقيدة اليهودية وما يتعلق بها ، تلك الاستفسارات التى كانت ترد إليهم من مصر والاسكندرية وبغداد وغيرها من البلاد[١٨٠] .

٢ – ناظر الحرمين :

ويسمى متولى هذه الوظيفة أيضاً بناظر القدس والخليل ، ومن مهامه النظر فى كل ما يحتاج إليه الحرم الشريف بالقدس وحرم الخليل من إصلاح وترميم فضلاً عن رواتب القائمين بالعمل فيهما ، والإشراف والتصرف فى الأموال المخصصة للأوقاف الخاصة بهذين الحرمين . كذلك كان من اختصاصه الإشراف على موارد المياه التى تمد الحرمين الشريفين والقدس والخليل بالمياه اللازمة للمصلين ، مثل قناة السبيل التى كثيراً ما نسمع عن خروج هذا الناظر ومعه العمال والصناع والآلات لعمارتها ، كذلك كان من اختصاصه ترتيب الوظائف فيهما[١٨١] .

وجدير بالملاحظة أن هذه المهام كانت من اختصاص نائب القدس أو واليها منذ سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م ، غير أنها انفردت عنه فى سنة ٨٤٣ هـ/ ١٤٣٩ م ، وذلك عندما ولى السلطان الظاهر جقمق القاضى غرس الدين خليل بن أحمد بن محمد بن عبد الله السخاوى نظر الحرمين كوظيفة مستقلة عن النيابة[١٨٢] . وكانت ولاية هذه الوظيفة تصدر عن الأبواب السلطانية بالقاهرة ، وكما سبقت الإشارة بذلك ، إلا أنه يبدو أن التعيين فى هذا المنصب وبخاصة فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة كان يتم بعد دفع مبلغ من المال ، ويؤكد لنا ابن تغرى بردى ذلك فى حديثه عن سنة ٨٤٧ هـ/ ١٤٤٧ م أيام السلطان أبو سعيد جقمق من أنه « استقر الأمين عبد الرحمن فى نظر الحرمين القدس والخليل بمال وعد به بعد وفاة الغرس خليل السخاوى » . وهذا يعكس لنا سوء الأحوال الاقتصادية فى دولة سلاطين المماليك ، نتيجة لقلة الأموال الواردة إلى السلطان من التجارة فضلاً عن ضعف الاقطاعات الزراعية عن الوفاء باحتياجاته مما كان يضطره إلى جمع المال بأية وسيلة[١٨٣] .

٣ – خطيب القدس :

كانت هذه الوظيفة تسند إلى من يقوم بالخطبة فى المسجد الأقصى ، ومن الملاحظ أن القائمين عليها كانوا أحياناً يجمعون بينها وبين وظيفة القضاء ، أو بينها وبين التدريس فى المدرسة الصلاحية ببيت المقدس ، كذلك يفهم مما رواه مجير الدين أن خطيب بيت المقدس كان أحياناً ما يجمع بين منصب الخطابة والقضاء والإمامة والافتاء مدة من الزمن ، نظراً لما يشتهر به من علم وصلاح ، هذا فضلاً عما عرف عن عائلتى بنى القرقشندى وبنى جماعة بالقدس الشريف من مكانة علمية ، فإن أبناء العائلتين كانوا يشتركون فى الخطابة بالتناوب ، وكذلك الحال بالنسبة لمشيخة الخانقاة الصلاحية ، لذا لا عجب عندما نسمع أن أحد أبناء العائلتين قد استمر فى نصف وظيفة الخطابة بالمسجد الأقصى ، أو أنه عندما توفى كان بيده الربع والثمن من الخطابة ، ونصف المشيخة بالخانقاه الصلاحية ، واستقر بعده فيما بيده من ذلك ولده أو أنه استقر فى نصف وظيفة الخطابة الذى كان بيد أخيه واستمر فى يده إلى أن توفى هذا الأخير[١٨٤] .

كما تجب الإشارة إلى أن تولى منصب الخطابة منذ بداية القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى أصبح عن طريق بذل المال للسلطان ، من ذلك ما يرويه لنا أحد المعاصرين من أنه فى سنة ٨٠٢ هـ/ ١٣٩٩ م وفى عهد السلطان فرج بن برقوق « استقر ابن السائح الرملى فى خطابة القدس ، بذل فيها ثمانين ألف درهم فصرف ابن غانم النابلسى » وأن جمال الدين يوسف بن غانم المقدسى تولى الخطابة « بمال بذله ثم سعى عليه القاضى جمال الدين عبد الله ابن السائح قاضى الرملة بمائة ألف درهم ولم يقم بها غير ثلاثة أشهر وعزل بالباعونى[١٨٥] » .

ومما لا شك فيه أن كثرة التعيين والعزل فى ذلك المنصب ، التى يصورها لنا المقريزى فى حديثه عن سنة ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م أيام السلطان فرج بن برقوق تعكس لنا سوء الأحوال التى آلت إليها الدولة فى تلك الفترة ، حيث يقول : « فكان فى مدة تسعة أشهر قد ولى خطابة القدس خمسة أحدهم وليها مرتين[١٨٦] » . ومن المرجح أن يكون السبب فيما وصلت إليه الحال هو شره السلاطين فى المال من جهة ، نظراً لسوء الأحوال الاقتصادية التى كانت تعانى منها البلاد ، فضلاً عن تكالب رجال الدين على هذا المنصب وتنافسهم فيما بينهم فى دفع الأموال للحصول عليه ، لما سوف يعود عليهم من أموال ، من جهة ثانية . وثمة ملاحظة أخيرة نوردها . فقد لفت نظرنا فيما تيسر لنا الاطلاع عليه من مصادر ومراجع أن كل من تولوا منصب خطيب بيت المقدس كانوا من الشافعية ، ولسنا ندرى السبب فى هذا : هل هو راجع إلى سيادة ذلك المذهب على غيره ، أم أنه كان يشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون شافعياً[١٨٧] .. كما أننا لم نعثر خلال المصادر والمراجع التى تحدثت عن بيت المقدس عن وجود ما يسمى « بخلوة الخطابة » والتى عرفت فى المساجد فى مصر فى عصر سلاطين المماليك وهى عبارة عن الحجرة المعدة لوضع ملابس الخطيب الخاصة ، وقد يحفظ بها أيضاً بعض المربعات الشريفة ، كذلك لعله خصص لكل خطيب سكن بجوار المسجد الأقصى[١٨٨] .

٤ – مشيخة المدرسة الصلاحية :

وهى من الوظائف الدينية الهامة فى مدينة بيت المقدس ، وكان يشترط فى القائم بها أن يكون من أبرز علماء عصره ، كما كان شيخ هذه المدرسة يعين من قبل السلطان بالقاهرة ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك فى حديثه عن شيخ الإسلام الكمالى ابن أبى شريف (ت ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٨ م) حيث يقول « وخلع عليه بحضرة السلطان بالحوش وكنت حاضراً ذلك المجلس فى صبيحة يوم السبت فى شهر صفر سنة ست وسبعين وثمانمائة وسافروا جميعاً من القاهرة ودخلوا إلى القدس الشريف[١٨٩] » . وقد سبقت الإشارة إلى أن التنافس كان شديداً بين رجال الدين على تولى هذه الوظيفة ، وفى الحقيقة أنه لم تصادفنا أية معلومات عن مهمة شيخ المدرسة الصلاحية بالقدس ، إلا أننا نستطيع القول إنها لم تختلف عن غيرها من وظائف شيوخ المدارس الأخرى ، من حيث أن مهمته كانت الإشراف على جماعة المدرسين والمعيدين والطلبة والخدام ومن إليهم الذين يفدون على المدرسة الصلاحية ، كذلك توفير كل ما يلزمهم من ضروريات من مأكل وملبس وخلافه ، أو بمعنى آخر تنفيذ وصية الواقفين على هذه المدرسة فضلاً عن رعايته للأوقاف المحبوسة عليها ، والعمل على تنميتها حتى تواجه متطلبات القائمين بالعمل فيها والواردين عليها من طلبة العلم .

٥ – مشيخة الخانقاه الصلاحية :

كانت هذه الخانقاه محلاً لرجال التصوف والمجاورين ببيت المقدس وهى التى أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبى على الصوفية عقب فتحه للقدس سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م . ويؤكد لنا أحد الباحثين أن بناء هذه الخانقاه لا زال موجوداً بالمدينة فى الوقت الحاضر[١٩٠] . ومما لا شك فيه أن وظيفة شيخ الخانقاه الصلاحية كانت من الوظائف الهامة فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، والدليل على هذا أن شيخ الخانقاه كان يعين بتوقيع من السلطان المملوكى بالقاهرة[١٩١] . كذلك يجب أن نشير إلى أنه كثيراً ما نسمع فى المصادر المعاصرة عن تناوب بعض الأشخاص فى تولى مشيخة الخانقاه أو أن تكون مناصفة بين شخصين[١٩٢] . كذلك تؤكد لنا بعض المصادر أن هذا المنصب كان يتوارثه الأبناء عن الآباء ، من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين فى ذكره لحوادث ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م أيام السلطان الأشرف قايتباى حيث يقول « وفى ذى الحجة توفى الشيخ جمال الدين عبد الله بن غانم شيخ حرم القدس الشريف واستقر ولده الشيخ ناصر الدين محمد فيما كان بيد والده من مشيخة الحرم ونصف مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقدس الشريف[١٩٣] » .

هذا ويجب أن نشير إلى أنه وجدت فى بيت المقدس عدة وظائف مماثلة لمشيخة الصلاحية منها مشيخة المغاربة ومشيخة التنكزية ومشيخة الأمينية ، إلا أنه كان يتم التعيين فى هذه الوظائف من قبل نائب السلطنة بدمشق أولاً ثم من نائب القدس بعد أن أصبحت نيابة ، وكما حدث بالنسبة لمشيخة الصلاحية من قيام أكثر من شخص بتولى مشيختها فى وقت واحد ، حدث أيضاً بالنسبة لهذه الوظائف[١٩٤] .

٦ – أئمة المساجد :

كانت إمامة المصلين من الوظائف الدينية التى لها ترتيب خاص فى الحرم القدسى ، ويروى لنا ابن شاهين الظاهرى أنه « يصلى بمسجد بيت المقدس فى أذن أربع صلوات على المذاهب الأربعة أول ما يبدأ بمذهب الإمام مالك بجامع المغاربة ثم بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام محمد بن ادريس الشافعى ثم بقبة الصخرة على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ثم بقبة موسى والرواق الغربى ، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل » هذا مع العلم بأن الأماكن المذكورة كلها داخل الحرم الشريف[١٩٥] . ويبدو أن هذ العادة كانت متبعة فقط فى صلاتى الظهر والعصر لأننا نسمع أنه فى صلوات المغرب والعشاء والفجر فكل إمام يصلى بجماعته من غير ترتيب ، وأما صلاة الجمعة فإنما تقام بالمسجد الأقصى بمحل صلاة إمام الشافعية لا غير ، وأما صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء فإنها تقام فى المحراب الذى على صحن الصخرة الشريفة ، ويخطب الخطيب على المنبر الذى بجانب المحراب[١٩٦] . وعلى هذا الأساس يمكننا القول أنه كان هناك أربعة من الأئمة داخل المسجد الأقصى على النحو التالى ، إمام للصخرة أى مسجد الصخرة على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ، وإمام للمالكية بجامع المغاربة – أى فى المكان المخصص لهم – بالمسجد الأقصى ، وإمام لقبة موسى بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وكذلك إمام بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام الشافعى . وقد اشترط فيه أن يكون من أهل العلم والصلاح ، حافظاً لكتاب الله الكريم ، مشهوراً بالخير والدين ، وحسن الصوت ، يحسن التلاوة ، عالماً بأحكام العبادات الشرعية ، وأن يحضر إلى المسجد أول الوقت وألا يجمع بين إمامة مسجدين ، وأن ينصح المؤتمين بالإخلاص فى صلاتهم وأن يجأر فى دعائه[١٩٧] .

٧ – المؤذنون :

من الوظائف الدينية ببيت المقدس المرتبة بمساجدها وظيفة المؤذن ، ويبدو أن عدد المؤذنين كان كبيراً فى المدينة ، بحيث أننا نسمع عن وجود وظيفة « رئيس المؤذنين » بالمسجد الأقصى الشريف ومسجد الصخرة ، ويبدو أنه كان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون حسن الصوت والأداء ، وأن تكون لديه حشمة ووقار[١٩٨] .

ومن الطبيعى أن تكون مهمة المؤذنين هى القيام بالأذان لكل صلاة فى وقتها ، والتسبيح فى أواخر الليل فى الوقت المعتاد فى الحرم الشريف ، ويبلغون خلف الإمام ، ويقرأون بعد الصلاة ما تيسر من القرآن الكريم ويصلون على الرسول الكريم ، ويختمون بالذكر والتأمين على الدعاء على العادة فى ذلك .

٨ – المرقى « المكبِّر » :

اشترطت وثيقة وقف السلطان قايتباى وجود وظيفة « المكبِّر » وهو المرقى الذى يتولى وظيفة الترقية للخطيب ويذكر الآية الكريمة « إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا ... »

من سورة الأحزاب آية ٥٦ – عند ظهور الخطيب من خلوة الخطابة ، ويكبر عند صعوده المنبر ، ويروى الحديث الوارد فى الإنصات « إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت » ، ولعله اشترط فى متولى هذه الوظيفة ما اشترط فى غيرها من الوظائف الأخرى من إمامة وغيرها[١٩٩] . فضلاً عن أنه كان لابد أن يكون جهورى الصوت[٢٠٠] .

٩ – الموقت والمقرىء :

من الوظائف الدينية التى عرفت ببيت المقدس على عصر سلاطين المماليك وظيفة الموقت ، وهى وظيفة مرتبطة بالأذان ، وكما هو معروف عن طبيعة هذه الوظيفة أن صاحبها كان عليه أن يحدد مواعيد الصلاة بدقة تامة ، ويبدو أنه كان يشترط فيمن يلى هذه الوظيفة أن يكون حاذقاً فى هذا الفن ، أو أن يكون عارفاً بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة .

كما تطالعنا المصادر المعاصرة أن صاحب هذه الوظيفة كان يستمر فيها مدة طويلة من العمر ، من ذلك ما يرويه مجير الدين عن أحد موقتى بيت المقدس وهو الشيخ « شمس الدين محمد التميمى الموقت بالمسجد الأقصى الشريف كان من أهل الحذق فى فنه باشر التأقيت بالمسجد الأقصى مدة أربعين سنة وكان موجوداً فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة وتوفى بعدها بقليل[٢٠١] » . وقد يقوم المؤذن نفسه بهذه الوظيفة إذا توفرت فيه الشروط السالفة الذكر ، ولا شك أن « الميقاتى » أو الموقت كان يستخدم بعض الآلات فى تحديد أوقات الصلاة ، منها المزولة والساعات الرملية وغيرها من الآلات الزمنية وبخاصة فى الليل ، وكانت هذه الآلات موجودة فى الجوامع والمساجد والمدارس لتحديد الأوقات ، ويباشرها الميقاتى بنفسه[٢٠٢] .

وإلى جانب وظيفة الموقت « فقد كانت هناك وظيفة المقرىء ، وهذه الوظيفة لا شك أن متوليها كان يشترط فيه أن يكون على دراية بعلم القراءات . وهذا العلم هو « صناعة مخصوصة وعلم منفرد تناقله الناس بالمشرق والمغرب »[٢٠٣] . كذلك لابد أن يكون حسن الصوت والأداء والترتيل ، حافظاً لكتاب الله ، ومن المؤكد أنه كان فى بيت المقدس عدد كبير من القراء بدليل وجود وظيفة « رئيس القراء بالقدس الشريف[٢٠٤] » .

ومما لا شك فيه أن نائب السلطنة فى بيت المقدس كان يقوم بتولية الوظائف السابقة ، نظراً لمعرفته بأهل البلاد من جهة ، ومن جهة أخرى فلم تصل فى درجتها إلى درجة الوظائف الكبرى التى حرص السلاطين على توليتها من قبلهم كما سبقت الإشارة بذلك .

ومن هذا العرض يتضح لنا أنه بالرغم من عودة المدينة إلى أحضان الدولة الإسلامية عقب استرداد صلاح الدين للمدينة بعد موقعة حطين الشهيرة ، فإن المدينة شهدت نوعاً من الاضطراب الذى نجم عن الصراع السياسى بين أبناء البيت الأيوبى والصليبيين من جهة ، ثم بين الأيوبيين بعضهم والبعض من جهة ثانية ، وبين الأيوبيين والمماليك من جهة ثالثة ، هذا الاضطراب الذى أثر فى مجريات الحياة العامة فى المدينة .

فضلاً عن أن قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر كان بمثابة الضرورة الحتمية لمواجهة الأخطار التى أحدقت بالمنطقة العربية ، تلك الأخطار الممثلة فى الصليبيين من جهة والمغول من جهة ثانية ، خصوصاً بعد أن ظهر تقاعس الأمراء والملوك الأيوبيين فى الدفاع عن العباد والبلاد أمام الغزو المغولى ، وكانت موقعة عين جالوت بمثابة النهاية للدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك محلها فى حكم بلاد الشام ، وما نتج عن شعور سلاطين المماليك من نظرة معاصريهم لهم بسبب أصلهم ، مما كان دافعاً لهم على اتخاذ سياسة ذات شقين ، الشق الحربى أو العسكرى وهو الظهور دائماً بمظهر القوة المدافعة عن الإسلام والمسلمين ، والشق الدينى وهو الاهتمام بمقدسات المسلمين وحمايتها ، وما كان لهذا الشق من أثر فى بيت المقدس .

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن عصر سلاطين المماليك يمثل مرحلة جديدة تماماً فى تاريخ مصر والشام بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص ، مرحلة لها طابعها الخاص الذى يتصف بالأمن والاستقرار والثراء والازدهار ، مرحلة جعلت من مدينة القدس مرة أخرى عنصراً فعالاً فى الحياة الإسلامية بجوانبها المختلفة ، وهذا ما سوف يتضح لنا من خلال الفصول القادمة من هذا البحث .

هوامش

(١) العماد الأصفهانى : كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى ، طبع القاهرة ١٩٠٣ ص ٤٧

(٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزءان ، طبع مطبعة وادى النيل بالقاهرة ١٢٨٧ هـ ، جـ ٢ ، ص ٢٠٤ ، المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة ثانية ١٩٥٦ ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ١١٠

(٣) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس فى عهد المماليك » بحث مقدم للمؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام ابريل ١٩٨١ ، ص ١ ، ٣

(٤) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ قسم ١ ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م ، جـ ٦ ، ص ١١٣ – ١٢٢ ، أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، طبع الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٨٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبع دار صادر بيروت ١٩٦٦ ، جـ ١٢ ، ص ٩٧ – ١١٠ .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٦ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ص ١١٤ – ١١٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ١٢٢ – ١٢٦ .

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٣٥١ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ؛ المقريزى : نفس المصدر ، ص ٢٢٦ .

(٨) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، طبع القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٩٨ .

(٩) على سبيل المثال انظر : المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢٨ – ٢٣٢ عن استعانة الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثانى فى حملة ضد الملك المعظم صاحب دمشق مقابل التنازل له عن بيت المقدس .

(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٠ ، جـ ٢ ، ص ٣ ، ص ٢٥٨ ؛ سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » .. ، ص ٢ ، ٣ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٠١ .

(١١) Lane-Pool: AHistory of Egypt in The Middle Ages, London 1925, P. 218.

(١٢) ابن واصل : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٥١ .

(١٣) يقصد المقريزى بملك الفرنج فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وكان هذا الامبراطور قد نذر يوم تتويجه سنة ١٢١٥ م (٦١٢ هـ أن يرافق الحملة الصليبية ، المعروفة فى التاريخ الأوربى بالخامسة ، والتى كان غرضها الديار المصرية . غير أن أموراً داخلية عاقته ، فلم يستطع الوفاء ، وسارت الحملة بقيادة حنادى بريين . لمزيد من التفاصيل راجع المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢١ ، حاشية ٣ .

(١٤) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

(١٥) المصدر نفسه ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٢٩ .

(١٦) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، طبع المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٥ هـ ، جـ ٣ ، ص ١٤١ .

(١٧) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٢٣٠ .

(١٨) Cam. Med. Hist., Cambridge 1957, Vol 6, P. 147.

(١٩) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان – القسم الأول والثانى من الجزء الثامن – حيدر آباد الدكن – الهند ١٩٥١ ، جـ ٢ ، ص ٤٣٢ .

(٢٠) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » ، ص ٤ .

(٢١) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر دار صادر بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٦١ ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٤ – ٥ .

(٢٢) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، دار المعارف ١٩٧٩ م ، ص ١٠ ، ١٤٥ – ٢٠١ .

(٢٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، القاهرة ١٢٥١ هـ ، ص ٣٠٩ .

(٢٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٠ فى ذكر وفيات سنة ٦٤٨ هـ .

(٢٥) Join Ville and Villehardouin: Chroniches of The Crusades, Penguin Classics, London 1963, pp. 274-296.

(٢٦) أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٢٥ ويتفق معه فى الرأى كذلك رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، نشر دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٩ ، جـ ٣ ، ص ٤٧٥ .

(٢٧) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٢ .

(٢٨) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢٩) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٤١٠ – ٤١١ .

(٣٠) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٣١ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر ، ص ١٦٨ .

(٣١) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٧١ – ١٧٢ .

(٣٢) أبو الفدا اسماعيل : تاريخ أبى الفدا ، طبع القسطنطينية ١٢٨٣ هـ ، جـ ٣ ، ص ٢١٤ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، قسم ١ ، ص ٤٢٣ – ٤٣٢ .

(٣٣) Lapidus: Muslim Cities In The later Middle Ages, Harvard Uni. Press, Massachusetts 1967, pp. 11-12l.

سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة » ، ص ٨٠٥ .

(٣٤) قاسم عبه قاسم : دراسات فى تاريخ مصر ، ص ١١ .

(٣٥) النجوم ، جـ ٧ ، ص ١٣ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٣١ .

(٣٦) أبو شامة : الذيل على الروضتين « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » الطبعة الثانية – نشر دار الجيل بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٣٠ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٥١ ، ص ٤٥٧ .

(٣٧) السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، جـ ١ ، ص ٨٧ .

(٣٨) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، حققه بولس راديس – باريس ١٨٩٥ م ، ص ٨٩ ؛ أحمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٩٠ .

(٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩١٣ م ، المطبعة الأميرية ، جـ ٦ ، ص ١٠٨ – ١٢٤ ؛ عبدالمنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، طبع القاهرة ، ١٩٧٠ ، جـ ١ ، ص ٢٩ .

(٤٠) رشاد الامام : مدينة القدس فى العصور الوسطى ، تونس ١٩٧٦ ، ص ٧٤ .

(٤١) طبع القاهرة ، ١٩٦١ م .

(٤٢) السلوك ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ١٤٣ – ١٤٤ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٨٠ – ١٨١ .

(٤٤) المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٦ .

(٤٥) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٠٤ – ٦٠٥ .

(٤٦) أبو الفدا : كتاب تقويم البلدان ، حققه م . رينود ، والبارون ماك كوكين دى سلان ، باريس ، المطبعة الملكية ١٩٠٧ ، ص ١٤٢ ؛ سعيد عاشور / « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس » ، ص ٣٢ .

(٤٧) تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٦ .

(٤٨) السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٦٠ فى ذكر حوادث سنة ٦٦٥ هـ .

(٤٩) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، حررها وليام بوبر – طبع كاليفورنيا ١٩٣٠ – ١٩٤٢ ، جـ ٣ ، ٥٤٥ .

(٥٠) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، طبع ليبزج ١٩٢٣ ، ص ٢٠١ .

(٥١) يرى البعض أن القدس تحولت إلى نيابة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٩ هـ/ ١٣٠٩ م استنادا على ما أورده ابن تغرى بردى فى حديثه عن الفتنة التى تزعمها الأفرم نائب الشام ضد الناصر بقوله : (وأشار قرا سنقر على الملك الناصر أنه يكاتب الأمير بكتمر الجو كندار نائب صفد ، والأمير كراى نائب القدس) وما أورده مجير الدين عن نفس النائب . راجع النجوم ، جـ ٨ ، ص ٢٥٨ ، الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٧ ؛ رشاد الإمام : مدينة القدس ، ص ٩٣ فضلاً عما يرويه بعض المؤرخين المعاصرين مما يفيد أنها كانت نيابة سنة ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣ م ، من ذلك ما يرويه ابن قاضى شهبة من أنه « استقر الأمير شهاب الدين ابن البريدى فى نيابة القدس وأعطى طبلخانه وعزل ابن نائب الصبيبه وكان وليها أياما .. » ، راجع تاريخ ابن قاضى شهبه ، تحقيق عدنان درويش – دمشق ١٩٧٧ ، ص ٥١٣ فى ذكر حوادث سنة ٧٩٦ هـ . بالإضافة إلى ما يرويه ابن الصيرفى فى نفس السنة من قوله : « وخلع على قردم الحسنى واستقر نائب القدس ... » راجع : نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق حسن حبشى ، ١٩٧٠ – ١٩٧١ ، جـ ١ ، ص ٣٨٧ .

(٥٢) إنباء الغمر بأبناء الغمر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٩ – ١٩٧١ ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .

(٥٣) صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ١٧٠ ، جـ ١٢ ، ص ١٠٥ .

(٥٤) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٣٩٢ – ٣٩٣ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف المماليك ، ص ١١٧ .

(٥٥) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٤ .

(٥٦) عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، القاهرة ١٩٦٤ ، جـ ١ ، ص ٢٧ .

(٥٧) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٧٨٣ .

(٥٨) Wright (Thomas): Early Travels In Palestine, London 1884, P. 165.

(٥٩) السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣١٩ .

(٦٠) التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٦٤ ؛ نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٥٣ .

(٦١) نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام ، ص ١٥٦ – ١٥٩ .

(٦٢) صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ١٠٧ – ١١١ .

(٦٣) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، قسم ١ ، ص ١٠٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٣٠ .

(٦٤) النجوم ، جـ ١١ ، ص ٥٣ .

(٦٥) بدائع الزهور ، ص ٢٠٣ فى ذكر حوادث سنة ٧٧٧ هـ .

(٦٦) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ٢٠٠ .

(٦٧) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس ..» ، ص ٣٤ .

(٦٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٣ ، ص ٤٨ – ٥١ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٥٣ ؛ السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٤٥ .

(٦٩) يقصد بكلمة بطال : لفظ جرى فى مصطلح دولة المماليك للدلالة على الأمير الذى يزول عنه اقطاعه بعزله عن وظيفته ونفيه ، راجع : المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، قسم ١ ، ص ٣٧ ، حاشية ٢ ، ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ٩ ، حاشية ٦ .

(٧٠) إنباء الهصر بأنباء العصر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ ؛ نزهة النفوس والأبدان ، جـ ٢ ، ص ٢٤ ، ٣٧١ .

(٧١) تاريخ ابن قاضى شهبه : ص ٥٠٢ فى حوادث سنة ٧٩٦ هـ .

(٧٢) رشاد الامام : مدينة القدس ، ص ١١٤ – ١١٥ .

(٧٣) سعيد عاشور : « بعض أضواء جديدة على مدينة القدس .. » ، ص ٣٤ .

(٧٤) السلوك ، جـ ٤ ، ص ١٢٠٣ فى أحداث سنة ٨٤٤ هـ ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٣٥ .

(٧٥) إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ١٥٣ .

(٧٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، ص ٦٥ ، ٣٣٢ ، ٣٦٠ ، ٩١٧ حوادث سنة ٧٨٠ هـ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١١ ،

ص ١٦٣ .

(٧٧) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ فى ذكر حوادث سنة ٧٢٣ هـ .

(٧٨) راجع على سبيل المثال : العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد « شيخ المحمودى » ، حققه فهيم شلتوت ، القاهرة ٦٦ – ١٩٧٧ ، ص ٣٤٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

(٧٩) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٣٥ ؛ سعيد عاشور ، نفس المرجع ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٨٠) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٨ .

(٨١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٨٩ .

(٨٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ١٤٥ فى ذكر حوادث سنة ٨٥٠ هـ .

(٨٣) ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، جـ ١ ، ص ٦٤ ؛ العينى : السيف المهند ، ص ٣٤٦ .

(٨٤) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٩٢ .

(٨٥) الأنس الجليل ، جـ ١ ، ص ٤٤٠ – ٤٤١ .

(٨٦) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، ص ٥٨٤ .

(٨٧) Van Brechem: Materiaux Pour un Corpus Inseription um Arabicarum, syrie Du Sud, Jerusalem Ville, le Caire 1922, vol. 43 Pt.1, p. 332.

(٨٨) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦١١ .

(٨٩) عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٩٩ .

(٩٠) عارف العارف : المفصل فى تاريخ القدس ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٩١) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .

(٩٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٧ ، جـ ١٢ ، ص ١٠٤ .

(٩٣) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٩٩ .

(٤) مسالك الأبصار ، جـ ٣ ، ص ١٤٤ .

(٩٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٩ – ٢٣٢ .

(٩٦) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ١ ، ص ٦٠٨ .

(٩٧) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ .

(٩٨) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٨١ .

(٩٩) مجير الدين : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٤١ .

(١٠٠) المصدر السابق : جـ ٢ ، ص ٦١٠ – ٦١١ .

(١٠١) الخالدى : رجال الحكم والإدارة فى فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع عشر الهجرى – القدس ، لم يعلم سنة طبعه ، ص ٧٨ – ٧٩ .

(١٠٢) Newett: Casola's Pilgrimes to Jerusalem In the year 1494, Menchester 1907, pp. 266-80.

(١٠٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ .

(١٠٤) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٨ ، حاشية ١ .

(١٠٥) منتخبات من حوادث الدهور ، جـ ٣ ، ص ٤٠٧ .

(١٠٦) رشاد الإمام : مدينة القدس ، ص ٩٨ .

(١٠٧) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٠٥ ، ص ٦٠٩ ، ٦١٨ ؛ الخالدى : رجال الحكم والإدارة ، ص ٧٤ .

(١٠٨) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٠٧ ؛ الخالدى : نفس المرجع ، ص ٦٢ .

(١٠٩) Newett: Casola's Pilgrims. P. 251.

(١١٠) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٩ .

(١١١) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ٤٠٥ .

(١١٢) القلقشندى : نفس المصدر والصفحة السابقة .

(١١٣) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٩٩ .

(١١٤) المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .

(١١٥) هناك نص وحيد تحدث عن المهام التى كانت تناط بنائب القلعة أورده القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .

(١١٦) حيث أورد ابن اياس فى بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ فى حديثه عن أحد الأمراء الذين تولوها أنه كان عالماً فاضلاً حتى عد من علماء الحديث ، وهو الأمير تغرى برمش (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م) .

(١١٧) صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١١٩ .

(١١٨) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، دار الكتاب العربى بمصر ١٩٤٨ ، ص ٤٣ .

(١١٩) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٠٤ .

(١٢٠) نقولا زيادة : دمشق فى عصر المماليك ، دمشق ١٩٦٦ ، ص ١٥٤ .

(١٢١) السبكى : معيد النعم ، ص ٤٤ .

(١٢٢) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٠ – ٣٣١ .

(١٢٣) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ١٩ .

(١٢٤) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٩ .

(١٢٥) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦١٦ .

(١٢٦) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦١٦ ؛ الخالدى : رجال الحكم والإدارة ، ص ٧٤ .

(١٢٧) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٢٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٢٩) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٥ ، ١٠٠ ، ١٩٧ .

(١٣٠) المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(١٣١) عن ذلك راجع : ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٣ ، ص ٧٥ فى ذكر حوادث سنة ٨١١ هـ .

(١٣٢) أحمد دراج : المماليك والفرج ص ٣٨ ؛ — Newett: Casala's Pilgrims. pp. 228-20

(١٣٣) — Bernard Von Breydenbach And His Journey To The Holy Land 1483-4, Landon 1911, P. xv; Pero Tafur: Travels And Adventures (1435-39), London 1926, pp. 72-73.

(١٣٤) P.P.T.S. London 1897, Vol. IX, P. 103.

(١٣٥) يقصد به الموظف الذى ارتبط اسمه بالإشراف على الأسواق ، وكانت وظيفته من الوظائف الجليلة التى يتولاها المتعممون باعتبارها خدمة دينية فى المحل الأول ، ولم يكن يتولاها فى بداية عصر المماليك إلا وجوه الناس وأعيانهم من المتعممين ، إلا أن هذا المنصب انحط بسبب فساد أحوال المماليك نظراً للأموال التى فرضوها على هذا المنصب ، وعن تلك الوظيفة ومهامها راجع : ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ؛ وكذلك الفصل الخامس من هذا البحث .

(١٣٦) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٦٠ – ٦١ .

(١٣٧) السبكى : معيد النعم ، ص ٦٥ – ٦٦ .

(١٣٨) معالم القربة فى أحكام الحسبة ، ص ٩٧ – ٩٩ .

(١٣٩) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠ م ، ص ٢٨ .

(١٤٠) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٩ ، ص ٤٤ – ٤٦ .

(١٤١) ابن الاخوة : المصدر السابق ، ص ١٤٧ ؛ عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسومهم ، ص ١٢٨ .

(١٤٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(١٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٦٠ – ٦١ .

(١٤٤) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٧ .

(١٤٥) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ٢ ، ص ٣٦٠ .

(١٤٦) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٤٨٠ .

(١٤٧) ابن حجر : المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٨٧ .

(١٤٨) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٧ .

(١٤٩) المصدر السابق والصفحة ذاتها .

(١٥٠) المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٤٦٦ .

(١٥١) المصدر نفسه ، جـ ٤ ، ص ٣٧ ، ١٩٣ .

(١٥٢) النجوم ، جـ ١٢ ، ص ١٥٣ .

(١٥٣) Newett: Casola's Pilgrims. p. 249.

(١٥٤) د . أحمد دراج : وثائق دير صهيون بالقدس الشريف ، طبع مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ ، ص ٧٧ – ٧٨ .

(١٥٥) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص٣٣٩ .

(١٥٦) Newett: Casola's Plgrims. pp. 258-59.

(١٥٧) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٧ .

(١٥٨) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل جـ ٢ ، ص ٤٤٧ .

(١٥٩) Van Bercham: Op Cit., Vol., 25 pp. 170-171

(١٦٠) ابن قاضى شهبة : تاريخ ص ٩٢ ؛ المقريزى : السلوك جـ ٣ ، قسم ٢ ، ص ٤٨٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ج ١١ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ، ص ٢٥٦ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس جـ ١ ، ص ٥٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ، ص ٣٢٤ .

(١٦١) الأنس الجليل : جـ ٢ ، ص ٥٥٧/ ٥٥٨ .

(١٦٢) الخالدى : أهل العلم ، ص ١٠ .

(١٦٣) رشاد الإمام : مدينة القدس ، ص ١٠٣ .

(١٦٤) أنباء الغمر : جـ ٢ ، ص ٣٩٨ .

(١٦٥) صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٧ .

(١٦٦) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٧٤ – ٤٧٨ .

(١٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم جـ ٩ ، ص ٢٩٨ .

(١٦٨) ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ، ص ٥٤ ، مجير الدين المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٥٨٥/ ٥٨٦ .

(١٦٩) مجير الدين نفس المصدر جـ ٢ ، ص ٥٦٢/ ٥٨٨ .

(١٧٠) السلوك ، جـ ٢ ، قسم ٣ ، ص ٦٩٦ .

(١٧١) عارف العارف : تاريخ القدس ص ٢٦٨ – ٢٦٩ ؛ فيليب دى طرازى : خزائن الكتب العربية ، جـ ٢ ، ص ٤٧٨ – ٤٧٩ .

(١٧٢) أحمد دراج : المماليك والفرنج ص ٦٣ .

(١٧٣) Adler: Jewish Travellers, London 1930 p. 133; The Jewish Ency. Vol 7 p. 132

(١٧٤) Ibid, P. 196.

(١٧٥) Ben-Sason: Jewish Society through the ages, New York, 1973 PP. 181-184.

(١٧٦) Specalum, A Journal of Medi eval Studies (1961-Vol. 36) P. 955.

(١٧٧) Adler: Op Cit., PP. 151-153.

(١٧٨) Adler: Op Cit. P. 133.

(١٧٩) Ibid. P. 196.

(١٨٠) Ibid: PP. 151-152.

أحمد دراج : المماليك والفرنج : ص ٢١١ ، حاشية ٥٦ .

(١٨١) ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٠٨ – ١٠٩ ، مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٦٠٥ – ٦٤٠ .

(١٨٢) السخاوى : التبر المسبوك : ص ٢٠٨ – ٣٥١ .

(١٨٣) منتخبات من حوادث الدهور : ص ١٠ حوادث سنة ٨٤٧ ه .

(١٨٤) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٧٩ – ٤٨٦ .

(١٨٥) ابن حجر : إنباء الغمر : جـ ٥ ، ص ٩٢ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٣ .

(١٨٦) السلوك ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ١٤١ .

(١٨٧) المقريزى : المصدر نفسه ، جـ ٣ ، قسم ٢ ، ص ٨٧٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٩ ، ص ٣١٨ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٥١٥ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٥ .

(١٨٨) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

(١٨٩) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٧٦ .

(١٩٠) محمد كرد على : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ١٥٤ .

(١٩١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٩٢) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

(١٩٣) نفس المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٦٦ .

(١٩٤) المصدر السابق نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٧٩ – ٥٨٣ .

(١٩٥) زبدة كشف المماليك ، ص ٢٣ .

(١٩٦) عبد الغنى النابلسى : الحضرة الأنيسية فى الرحلة القدسية ، ص ١٩ .

(١٩٧) عبد اللطيف ابراهيم : نصان جديدان فى وثيقة الأمير ضرغتمس ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٧ .

(١٩٨) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ ؛ مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٦ – ٥٣٣ .

(١٩٩) عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة السلطان قايتباى ، ص ٣٠١ وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة ، القاهرة ١٩٦١ م ، ص ٤٣٠ .

(٢٠٠) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ ١٠ ، ص ٨٨ .

(٢٠١) الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٢٤ .

(٢٠٢) محمد محمد أمين : نفس المرجع ، ص ١٩١ .

(٢٠٣) عبد اللطيف ابراهيم : نصان جديدان ، ص ١٦٨ .

(٢٠٤) مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ ٢ ، ص ٥٣٣ .

الفصل الثاني

سكان مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك

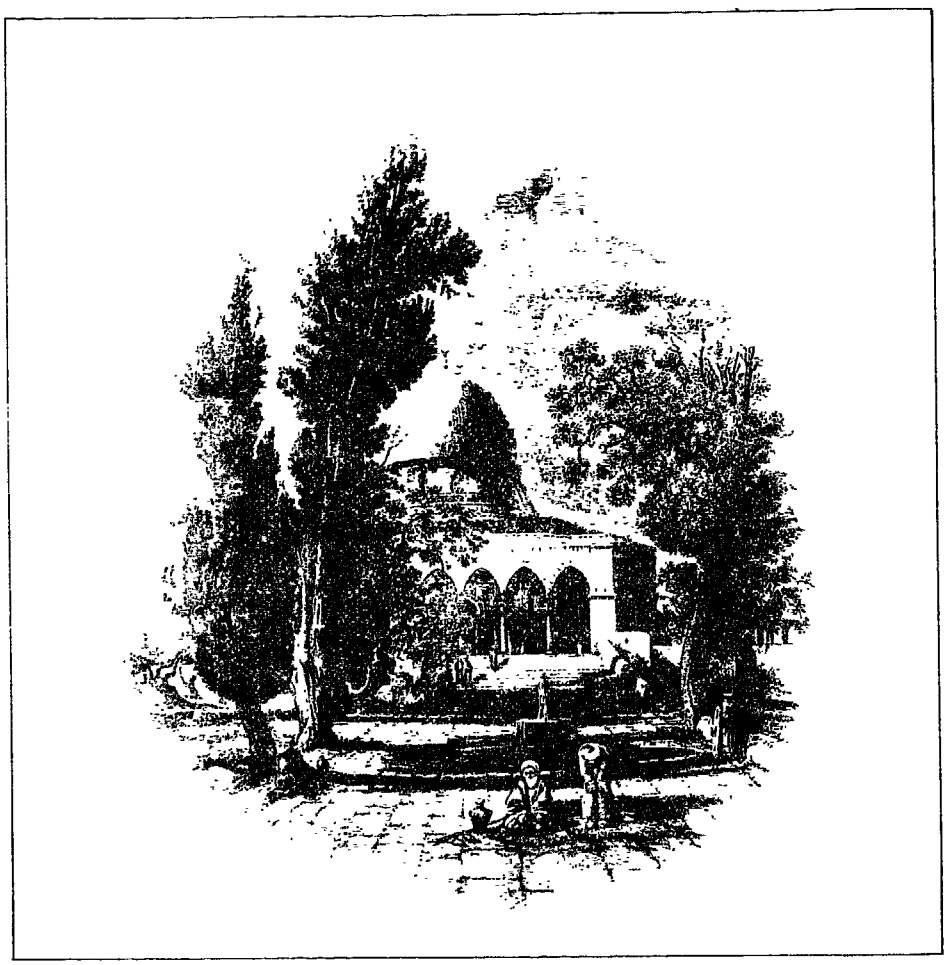

التطور السكانى فى المدينة

فى بداية الحديث عن التطور السكانى فى مدينة بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، يجب الإشارة إلى أنه ليس لدينا من الإحصائيات ما يساعدنا على تقرير عدد سكانها تقديرا دقيقا ، منذ فتح صلاح الدين الأيوبى لها ، وما أطر عليهم من تغيير فى ذلك العصر ، إذ المعروف أن أول احصاء رسمى تم بها كان مع بداية العصر العثمانى وعلى هذا الأساس سنحاول الوصول إلى تقدير معقول لعدد سكان المدينة وسعتها من خلال تتبع روايات بعض المؤرخين المعاصرين منذ الفتح الصلاحى حتى العصر المملوكى ، ثم نستعرض بعد ذلك أهم العوامل التى أثرت فى تطور السكان فيها ، مع الاعتماد على أقوال بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا المدينة فى الفترة التى نتناولها بالبحث .

يرى بعض المؤرخين أن عدد سكان مدينة بيت المقدس « قد بلغ مائتى ألف نسمة أيام الصليبيين فى القرن الحادى عشر ، حيث كان نصفهم من السكان العرب الأصليين ، والباقى من الذين وفدوا مع الفتح الصليبى من أوربا ، ولكن سرعان ما انخفض العدد إلى أربع وأربعين ألف فقط بعد استرداد صلاح الدين المدينة المقدسة وطرد الصليبيين منها ... »[١] . إلا أننا نقول أن الصليبيين استولوا على المدينة عام ١٠٩٩م ، أى آخر سنة من القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم أعقب ذلك عملية تفريغ للمدينة من أهم عناصر سكانها وهم المسلمون واليهود – لأن المسيحيين المحليين كانوا موضع شك من حكامها المسلمين نظرا لسلوك كثير من المسحيين فى مساعدة الغزاة ، مما دفع الكثير منهم إلى هجرة المدينة قبل الغزو الصليبى لها[٢] ، ومهما قيل عن عدد الصلبيين الذين سكنوا المدينة عقب الغزو ، فإن أعدادهم كانت قليلة بسبب سكنى معظم الصليبيين فى المناطق التى فتحوها فى بلاد الشام وعودة الكثيرين منهم إلى الغرب ، بحيث افتقدت المدينة إلى الأمن وإلى من يحرسها فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى[٣] . وإذا كان قد سمح للمسلمين واليهود بالعودة إلى بيت المقدس فلم يكن ذلك سوى لتقديم بعض خدماتهم التجارية للفرنج[٤] ولا يغيب عن الأذهان أن المسلمين

واليهود لم يكن من السهل عليهم أن ينسوا ما حل بإخوانهم من مذابح عقب الغزو ، فضلا عن أنه إذا كان الملك بلدوين الأول الحاكم الثانى لبيت المقدس قد شجع المسيحيين المحليين على الهجرة إلى المدينة ، فمن الصعب تصور وصول أعداد ضخمة منهم تصل إلى ما يقرب مائتى ألف بينما كان الصليبيون أقلية ملحوظة(٥) .

ويرى بعض المؤرخين أن سكان القدس من الفرنج من الرجال والنساء والأطفال عندما استردها صلاح الدين ربما لم يكن أقل من ثلاثين ألف نسمة(٦) . بينما يرى فريق ثالث أن عدد السكان بها وقتذاك كان مائة ألف نسمة(٧) كما يشير العماد الأصفهانى – وهو معاصر لتلك الفترة – أنه كان فى المدينة عندما دخلها السلطان صلاح الدين الأيوبى « .. أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان .. » كما أن عدد المحاربين بها كان « حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من سائف ونابل .. »(٨) كذلك تجمع كثير من المصادر العربية المعاصرة لتلك الفترة على أن عدد المقاتلين من الفرنج كان ما يقرب من الستين ألفا ، من ذلك ما يرويه لنا أبو شامة من قول : « ولقد تحازر أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلين بما يزيد على ستين ألفا ما عدا النساء والصبيان »(٩) كذلك يقول سبط ابن الجوزى فى حديثه عن الفتح الصلاحى أيضا أن القدس « كان مشحونا بالبطارقة من الخيالة والرجالة ما يزيد على ستين ألفا غير النسا والذرية .. » كذلك يذكر ابن خلدون ما يؤكد هذا العدد بقوله : « وكان فيه على التحقيق ستون ألف مقاتل غير النساء والولدان ... » وفى موضع آخر يفسر لنا السبب فى تلك الزيادة فى أعداد الصليبيين بالقدس من أنهم « أزروا إليه من كل جانب لما افتتحت عليهم حصونهم وقلاعهم ... »(١١) وهو تفسير منطقى لتلك الكثرة العددية فى المدينة فى ذلك الوقت .

ويمكننا أن نقدر عدد سكان مدينة القدس عند الفتح الصلاحى لها بحوالى مائة وعشرين ألفا من السكان ، على أساس أن الصليبيين كانوا يشكلون حوالى مائة ألف منهم ستون ألفا من المقاتلين حسبما تشير المصادر بذلك ، والذين كانوا يشكلون أغلبية عدد الصليبيين ، حيث قام باليان دى ابلين عندما حاصر صلاح الدين المدينة بتنصيب كل صبى تجاوز السادسة عشرة من عمره فارسا(١٢) ، بعدما أحس بنقص الرجال المقاتلين بصورة مخيفة ، حتى قيل أنه كان فى بيت المقدس عندئذ رجل واحد من الصليبيين مقابل كل خمسين من النساء والأطفال(١٣) بالإضافة إلى حوالى أربعين ألفا من النساء والأطفال والشيوخ ، أضف إلى هذا العدد بضعة آلاف من الأرمن ، حيث « استطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة أرمنى أدعى أنهم من بلده وأنهم حضروا للزيارة وطلب مظفر الدين كوكبورى ألف أرمنى ادعى أنهم من الزهاد فأطلقهم السلطان ... »(١٤) هذا بالإضافة إلى عدة آلاف من المسيحيين المحليين وبخاصة من الأرثوذكس ، والذين وعدوا بفتح أبواب المدينة لصلاح الدين عندما قام بمحاصرتها(١٥) والذين تقدرهم بعض المراجع بحوالى عشرين ألفا من السكان(١٦) . هذا إلى جانب ما يشير إليه ابن شداد من وجود ما يزيد على ثلاثة آلاف أسير من أسرى المسلمين فى المدينة عند الفتح الصلاحى لها(١٧) .

وإذا نظرنا إلى هذا العدد نجد أنه معقول جدا وخاصة وأن سبط ابن الجوزى – صاحب مرآة

الزمان يشير إلى أنه كان باستطاعة المدينة أن تستوعب أكثر من مائتى ألف من السكان(١٨) .

وبخروج الصليبيين منها أصبحت المدينة شبه خاوية من السكان ، وليس أدل على ذلك أنه حدث عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م عندما توجه صلاح الدين لتفقد أحوال المدينة أنه اكتشف جماعة من المسيحيين المحليين يحملون كتبا بعث بها وإلى القدس إلى صلاح الدين وأدرك أنهم سوف يطلعون عليها ريتشارد قلب الأسد فيسهمون بذلك فى إعادة القدس إلى الصليبين فأمر بقتلهم(١٩) وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أنه حضر مع صلاح الدين زهاء عشرة الاف من الفقهاء ، ولعل بعضهم فضل الاقامة فى بيت المقدس بعد ذلك ، الا أن ذلك كان البداية لتدفق السكان عليها لسكناها(٢٠) . كما أنه قد سبقت الاشارة فى الفصل الأول إلى ما عاناه سكان المدينة فى فترة القلق والاضراب فى عصر خلفاء صلاح الدين ، وأن المدينة غدت كالكرة تتلاقفها أيدى الصليبيين تارة وأيدى المسلمين تارة أخرى حتى موقعة عين جالوت ، ودخول المدينة تحت حكم سلاطين المماليك وهم الذين حققوا السلام الحقيقى لبلاد الشام ومصر بوجه عام والقدس بوجه خاص .

أما عن اعوامل النمو السكانى فى المدينة بعد استرداد المسلمين لها ، فقد كان أول هذه العوامل هو دخول المدينة تحت حكم سلاطين المماليك ، والذين سبق أن أشرنا إلى سياستهم فى الحكم والتى اعتمدت على الشق الحربى وهو الدفاع عن المسلمين والاسلام ، فضلا عن الشق الدينى وهو رعاية المقدسات الاسلامية وشعائر الاسلام حتى يمحوا من نفوس معاصريهم ما لحق بهم من تجريح ، وكان من نتيجة دخول المدينة تحت حكم سلطنه المماليك أن تمتعت المدينة لأول مرة منذ عدة قرون بالاستقرار التام ، وغدت مركزا حضاريا هاما فى الدولة المملوكية ، كذلك لعل من العوامل التى ساعدت على تطور عدد السكان بها كثرة الهجرة من العراق وبعض البلدان الاخرى إلى بلاد الشام ، ومنها بيت المقدس ، تلك الهجرات التى نجمت عن المذابح الرهيبة التى ارتكبها المغول فى البلاد التى فتحوها ، إلى جانب أن هذه الهجرات قد استمرت حتى بعد استقرار المغول فى البلاد التى فتحوها وخاصة العراق فإن الكثيرين من المسلمين الذين رغبوا العيش تحت ظل الحكم الاسلامى تركوا العراق واتجهوا إلى بلاد الشام ومصر ، إما طلبا للعلم أو أنه قد جذبهم مدى ما تمتع به سكان تلك البلاد من رخاء تحت حكم المماليك(٢١) . ويؤكد لنا مجير الدين أن كثيرا ممن هاجروا من الشرق إلى بلاد الشام قد استقروا فى القدس على اعتبار أنها مركز دينى هام ، وباشروا فيها كثيرا من الوظائف الدينية ، مثل تولى القضاء أو مشيخة بعض الخوانق والمدارس الهامة فى ذلك العصر(٢٢) . ولم تكن الهجرة إلى بيت المقدس مقصورة على أهل الشرق ، بل إننا نسمع طوال عصر سلاطين المماليك عن كثير من علماء الغرب الذين استقروا فى القدس وأقاموا بها حتى وافتهم المنية ، وتولوا كثيرا من المناصب الدينية ، وبخاصة مشيخة المغاربة بالقدس الشريف وامامة المالكية ، كذلك لعل الظروف السياسية التى سادت بلاد المغرب ، سواء الفتن والاضطرابات واختلاف ملوكها ، أو حركة الاسترداد التى قام بها الغرب الأوربى كانت من العوامل التى شجعت على تدفق أعداد كبيرة من المغرب إلى مصر وبيت المقدس فى تلك الفترة التاريخية من حياة مدينة بيت المقدس(٢٣) .

وبالاضافة لعامل الهجرة فقد كان هناك سبب آخر للتطور السكانى فى مدينة القدس منذ بداية عصر سلاطين المماليك ، وبوجه خاص طوال عصر سلاطين المماليك البحرية أو دولة المماليك الأولى كما يطلق عليها بعض المؤرخين ذلك ، ففى تلك الفترة يبدو أنه كان هناك تطور ملحوظ فى الاحوال الصحية العامة ، فالمؤرخون المعاصرون يذكرون فقط حالتين للأمراض المعدية أو الأوبئة فى كل من بلاد الشام وفلسطين فى سنتى ٦٥٨هـ/١٢٥٨م ، ٦٧٣هـ/١٢٧٤م ، وهذا الوباء كان بمثابة الخلل الوحيد فى تلك الفترة ، أعقبته مجاعة ، ثم تبعته فترة حوالى نصف قرن لم نجد فيها ذكرا لهذا المرض أو هذا الوباء(٢٤) .

كذلك نعمت بلاد الشام بوجه عام وبيت المقدس بوجه خاص بالاستقرار الاقتصادى والذى غالبا ما يؤدى إلى تزايد عدد السكان – ففى عهد دولة المماليك الأولى أو البحرية ، والذى دام حوالى مائة وثلاثين سنة تمتعت البلاد بالاستقرار النسبى ، ولم يحدث ما يسبب ارتفاع الاسعار أو اضطراب الأحوال الاقتصادية ، كما أن المعاملات المالية كانت مستقرة فى أوزانها وقيمتها وكميتها من حيث الدينار والدرهم ، واستخدمت فى صكها سبائك ممتازة من المعادن ، وكان من نتيجة ثبات العملات والنظم المالية أن حدث ارتفاع فى أسعار الحبوب ونقصان فى الاجور ، ولأن أسعار الضروريات قد ارتفع فذلك راجع الى تزايد الطلب عليها ، وما هذا الارتفاع فى الاسعار الا نتيجة للتزايد السكانى ، وهذا العامل نفسه وهو تزايد السكان كان له أثره المباشر فى انخفاض الأجور ، فعندما يزيد عدد الايدى العامله ، فان الاجور لابد وأن تقل(٢٥) .

هكذا رأينا أنه كان لدخول مدينة بين المقدس تحت حكم سلاطين المماليك أثره الكبير فى ازدياد عدد السكان بها ، نظرا لما تمتعت به المدينة من أمن واستقرار ، كانت قد حرمت منهما منذ أمد طويل ، فضلا عما أحاط بظروف العالم الاسلامى آنذاك من ظروف سياسية ساعدت على الهجرة إلى المدينة ، إلى جانب العوامل الصحية وتحسنها فضلا عن الظروف الاقتصادية وما كان لها من شأن ملحوظ فى التطور السكانى فى بداية عصر سلاطين المماليك .

الا أننا نلاحظ أنه منذ منتصف القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى فإن عدد سكان بيت المقدس آخذ فى النقصان ، وهذه الحقيقة هى التى لفتت أنظار بعض الرحالة من الحجاج المسيحيين الغربيين وكذلك بعض الرحالة اليهود الذين زاروا البلاد فى تلك الفترة التى نتحدث عنها . نذكر منهم على سبيل المثال الرحالة فيلكس فابرى الذى زار المدينة عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م وظل بها فترة ، حيث يذكر لنا أنه كان بالمدينة أكثر من خمسمائة من اليهود وأكثر من ألف من المسيحيين من الطوائف المختلفة والبلاد المختلفة ، الا أنه لم يذكر لنا شيئا عن عدد المسلمين بها ، ولكن من المؤكد أنه لاحظ أن عدد سكانها كان قليلا بشكل واضح ، حيث يذكر لنا أن كثيرا من منازلها كانت خربة وليس بها سكان ، وأنها كانت تستخدم لرمى جثث الحيوانات النافقة ، كذلك يؤكد فى حديثه عن المناطق التى كانت تحيط بالمدينة ، أنه كان يمكن تحويلها إلى أراضى جيدة وخصبة لو أن هناك من الناس من يزرعها أو يسكنها(٢٦) . كذلك يؤكد لنا موشلام الفولتيرى أحد الرحالة اليهود والذى زار المدينة سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م أن عدد السكان المسلمين كان يبلغ عشرة آلاف(٢٧) . كذلك يصف لنا الرحالة اليهودى عوبديا الذى زار المدينة سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م ، ان بيت المقدس فى معظم أجزائها مهجورة وخراب ويبلغ عدد سكانها كما أخبر بذلك حوالى أربعة آلاف أسرة أما عدد اليهود بها فكانوا يشكلون سبعين أسرة ، معظمهم من الشيوخ والأرامل والذين أتوا من المانيا وأسبانيا

والبرتغال والبلاد الأخرى ، وكانت النسبة بينهم هى سبع سيدات إلى رجل واحد(٢٨) . كذلك يذكر لنا الرحالة كازولا الذى زار المدينة عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤م ، أن المدينة بها عدد متواضع من المنازل وأن سكانها ليسوا كثيرين ، وهذا يؤكد لنا التدهور السكانى الذى شهدته المدينة فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة(٢٩) ، وبخاصة إذا قدرنا عدد السكان حسب أقوال هؤلاء الرحالة السابقين ، فسوف نجد أن أعدادهم لن تزيد عن عشرين ألف بأى حال من الأحوال .

وهنا لابد للباحث من وقفة لو قصيرة لتحليل هذه الظاهرة – وإن كانت ظاهرة عامة فى كل سلطنة المماليك بمعنى أنها لم تكن قاصرة على بيت المقدس وحدها حسبما تشير بذلك المصادر المعاصرة(٣٠) .

ومن المؤكد أن انخفاض عدد السكان بمدينة بيت المقدس فى ذلك العصر يرجع إلى عدة عوامل متشابكة معا ، لعله فى مقدمة هذه العوامل تكرار انتشار الاوبئة ، ويأتى فى مقدمة هذه الاوبئة . والذى يعتبر المقدمة الحقيقية للتدهور السكانى العام والذى بدأ واضحا مع مطلع القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى .، ذلك الوباء المروع والذى احتاج الأرض من أقصاها إلى أقصاها ليخرب البناء السكانى فى العالم المعروف آنذاك(٣١) ، ذلك الوباء الذى أطلق عليه الغربيون اسم « الموت الاسود » والذى حدث عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م واستمر حتى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ، والذى كان السبب فى هلاك حوالى ثلثى سكان مصر وبلاد الشام(٣٢) والذى أطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم « الفناء الكبير » ، والذى استمر يمزق فى الكيان السكانى ما يقرب من عامين ، وامتلأت الطرقات والمساجد بجثث ضحاياه ، وكان فتاكا لدرجة أن الأدوية لم تكن تجدى نفعا لسرعة الموت ، وامتد أثره إلى الطيور والحيوانات حتى البرية منها والأسماك وغيرها(٣٣) ولقد عانت مدينة بيت المقدس من هذا الوباء وأثره عليها اكثر من غيرها من البلاد الاخرى ، كما أن الخسارة الناجمة عنه لم يكن ليعوضها بأى حال من الأحوال معدل النمو السكانى أو كثرة الأنجاب(٣٤) .

ويعد هذا الوباء المروع تعرضت المدينة لعدة أوبئة كان لها تأثيرها الواضح على البنية السكانية فيها ، ولنأخذ مثلا على ما يرويه لنا مجير الدين عن الطاعون الذى استمر فى القدس من عام ٨٨١هـ/١٤٧٦م إلى ٨٨٢هـ/١٤٧٧م وأنه « أفنى خلقا من الشباب والنساء وأهل الذمة ولم يكن طال ببلد أكثر من بيت المقدس ... »(٣٥) . كذلك يصور لنا ابن الصيرفى كثرة أعداد الموتى من الطاعون بأنه « يصير الميت ثلاثة أيام لايجد من يحمله الا على سلم أوباب » وفى هذه العبارة تأكيد لكثرة اعدادهم بحيث يعجز حملهم الا على سلم أوباب أو لوح من الخشب لعدم كفاية الاعداد الموجودة من خشب حمل الموتى(٣٦) كذلك يؤكد لنا الاب سوريانو الذى عاش فى بيت المقدس زمنا طويلا كرئيس لطائفة الرهبان الفرنسيسكان ، أن وباء الطاعون كان يتكرر حدوثه فى المدينة كل عشر سنوات تقريبا ، مما ساعد على التدهور السكانى بها(٣٧) .

هذا بالاضافة إلى حدوث وتكرار الزلازل فى المدينة فى تلك الفترة بشكل مخيف ، وما كان ينتج عنها من هلاك كثير من السكان ، فيذكر أحد المؤرخين أن أحد تلك الزلازل وهو الذى حدث عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م لم يترك بيتا علويا فى بيت المقدس الا هدمه(٣٨) .

ومن العوامل التى ساعدت على التدهور السكانى فى بيت المقدس فى ذلك العصر ، سوء الاحوال الاقتصادية الذى عم دولة سلاطين المماليك منذ القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، وما نجم عنها من اضطرابات عانى منها الناس جميعا فى ذلك الحين ، ومهما قيل عن محاولات سلاطين المماليك للتخفيف من تلك الأزمات والذى سيتضح لنا فى الفصل الخاص بالحياة الاقتصادية فى بيت المقدس فيمكننا القول أن سلاطين المماليك لم تكن لهم سياسة ثابتة نحو استغلال – الارض الزراعية والعناية بها ، مما جعل الظروف الطبيعية تتحكم بشكل مؤثر وفعال فى حياة الكثيرين ، ولعل خير ما يصور لنا ذلك حديث المقريزى عن سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م من أنه « أجدبت أرض بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة ، لعدم نزول المطر فى أوانه ، ونزح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم ، وقلت المياه عندهم .. »(٣٩) وكان من نتيجة الأزمات الاقتصادية وسوء الأحوال الاقتصادية أثرهما الكبير فى أوضاع المدينة ، بحيث عم الغلاء البلاد ، وهلك من البهائم مالا يحصى ، وأفتقر أكثر الأغنياء من الناس من أرباب العيال ، مما جعلهم نهبا للمرض والأوبئة المختلفة والفتاكة فى نفس الوقت(٤٠) .

كذلك لعله كان من ضمن العوامل التى ساعدت على قلة عدد السكان فى مدينة بيت المقدس فى تلك الفترة التى نتحدث عنها ، الغزوة التى قام بها تيمورلنك لبلاد الشام عام ٨٠٢هـ/١٤٠٢م والتى احتل فيها دمشق ، وعلى الرغم من أنه لم يصل إلى مدينة القدس ذاتها ، الا إنها أدخلت على سكان تلك المدينة من الخوف والفزع ما ذكرهم بما سبق وأحدثه المغول ببلاد الشام من فتك ودمار وتخريب ، إلى جانب خوفهم من استمرار الغزو التيمورى ، كل ذلك كان دافعا لكثير من السكان على هجرة المدينة واللجوء إلى مصر(٤٠) . ويمكننا أن نفسر هذه الظاهرة فى ضوء التدهور السياسى الذى عم سلطنه المماليك الجراكسة بوجه عام ، الذى نلمسه من عدم وجود سلاطين عظام أمثال الظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون والناصر محمد ، والذين أحكموا قبضتهم على مقاليد البلاد ، وخصصوا شطرا كبيرا من جهودهم لتوفير الأمن والطمأنينة بعكس ما نلحظه من اضطراب وفوضى فى عصر الجراكسة ، هذا العصر الذى كثرت فيه فتن العربان وتعرضهم الدائم لسكان المدينة بالسلب والنهب مما أدى إلى انعدام الامن فى المدينة عدة مرات(٤٢) ويذكر المقريزى أن هؤلاء البدو قد أفسدوا المنطقة المتاخمة للقدس من تكرار الفتن التى كانت تقوم بين مختلف قبائلهم ، ويبدو وأن السبب الرئيسى من وراء تلك الغارات التى قاموا بها فى تلك المنطقة وحتى على المدينة نفسها زاجع بالدرجة الاولى إلى مدى ما وصلت إليه الدولة من تدهور سياسى(٤٣) . هذا بالاضافة إلى أن كثيرا من أصحاب الحرف قد هاجروا إلى مصر لسوء الاحوال فى المدينة ، آملين فى أن يجدوا مجالا أكبر لممارسة نشاطهم ، وحياة أفضل وأمنا اكثر مما كان فى المدينة نفسها ، مما كان سببا واضحا فى قلة وتناقص اعداد السكان بها فى ذلك العصر(٤٤) .

هكذا رأينا أنه كان نتيجة لدخول المدينة تحت حكم سلاطين المماليك أثره الكبير على تطور السكان بها ، بما تحقق لها من أمن واستقرار ، فضلا عن أن العوامل السياسية المحيطة بالعالم الاسلامى كانت ذات أثر كبير فى تطور السكان فى المدينة فى عصر سلاطين المماليك البحرية طوال فترة

حكمهم وهى التى تقارب القرن والنصف ، ثم رأينا أنه فى دولة المماليك الجراكسة فان معدل السكان أخذ فى التدهور بسبب انتشار الاوبئة التى عانت منها منطقة الشرق الادنى بل والعالم المعروف آنذاك ، فضلا عن الاسباب الاخرى التى ساعدت على ذلك التدهور السكانى .

والممثلة فى التدهور الاقتصادى والسياسى للدولة ومدى انعكاس كل منهما على حياة السكان فى مدينة بيت المقدس فى ذلك العصر .

سكان مدينة بيت المقدس

كانت مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك تضم أبناء الديانات السماوية الثلاث ، باعتبارها مقدسة عندهم جميعا ، وبالاضافة إلى وضعها الدينى لديهم جميعا ، وعلى هذا الاساس رأينا أن نقسم السكان إلى ثلاث قطاعات دينية كبرى ، سنتحدث عن كل قطاع منها على حدة ، ونبدأ حديثنا عن القطاع الاسلامى على اعتبار أنه يشكل غالبية السكان فى ذلك الحين .

ا ــ القطاع الاسلامى :

لم يصادفنا فى المصادر والمرجع التى اطلعنا عليها ما يساعدنا على تقدير عدد المسلمين فى بيت المقدس فى تلك الفترة التى نتحدث عنها بشكل واضح ، الا أننا نستطيع القول اعتمادا على ما سبق وأشرنا اليه من أنهم كانوا يشكلون أغلبية السكان ، ويجب الاشارة إلى أن القطاع الاسلامى شمل العديد مما يمكن أن نسميهم تجاوزا عناصر سكانية ، حيث ضم المماليك وعرب الجزيرة العربية والمغاربة والاكراد والتركمان والهنود وهم الذين سنتحدث عن كل منهم على حدة .

(١) المماليك :

يأتى المماليك على رأس القطاع الاسلامى فى مدينة بيت المقدس باعتبار أنهم شكلوا الطبقة العسكرية الحاكمة ، وهم معظمهم من الأتراك والجراكسة ، والذين لم يكونوا فقط مختلفى الجنسية بل من حيث الاصل واللغة ، واعتمدت تربيتهم أساسا على شعورهم بالولاء لأميرهم الذى يدربهم ويعولهم ولإخوانهم فى السلاح ، وكان اهتمام تلك الطبقة الرئيسى عو تدعيم نظامهم العسكرى ، واستغلال الشعوب التابعة لهم ، وبما أنهم كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة ، فإن الأرض كانت توزع عليهم ليجنوا منها نفقاتهم كل حسب مرتبته ومكانته وعدد مماليكة الذين يتبعونه ، وكان على أفراد هذه الطبقة عبء الدفاع عن البلاد ضد الاخطار الخارجية من جهة ، وحماية عرش السلطان ضد الاخطار الداخلية من جهة ثانية ، كما كانت هذه الطبقة تقوى نفسها على الدوام بما يجلبه تجار الرقيق إلى البلاد من المماليك[٤٥] .

ويتضح لنا الدور البالغ الأهمية الذى لعبه المماليك فى مدينة بيت المقدس من خلال تحكمهم فى

الأراضى الزراعية ، وبذا كانوا المهيمنين على الحياة الاقتصادية ، فضلا عن أنه عن طريق سيطرتهم على الحياة الدينية بتعيينهم لرجال الدين ، فقد مدوا نفوذهم على كل المجتمع الاسلامى فى ذلك العصر(٤٦) كما يجب ألا نقلل من شأن هذا العنصر فى مدينة بيت المقدس باعتبار أن الصبغة الدينية كانت هى الغالبة فيها ، لأننا من خلال إحصائية أجر بناها - وهى ملحقة بآخر البحث - عمن تم نفيه إلى مدينة بيت المقدس من أمراء ، المماليك ، وجدنا أنه لا تكاد تخلو سنة الا ويأتى ذكر النفى إلى القدس ، فاذا عرفنا أن بعض هؤلاء الامراء كان يصطحب معه عائلته وأتباعه ، لادركنا مدى كثرة المماليك فى القدس بالنسبة لحجم سكانها أو بالنسبة لحجم المدينة نفسها ، فضلا عمن كان يطلب الاقامة فى المدينة من كبار الامراء لكى يكون بعيدا عن تقلب الاحوال السياسية .

ومن الطبيعى أن كل أمير من الأمراء كان يصطحب معه أتباعه وأفراد أسرته ، فمن ذلك ما يرويه لنا ابن تغرى بردى فى ذكره لحوادث سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م فى سلطنة الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون من قوله « وحضر طاز وعلى عينيه شعرية فأخلع عليه وسأل أن يقيم بالقدس فأجيب وسافر إلى القدس وأقام به إلى أن مات ... » وكان الأمير اليوسفى الناصرى هذا قد اعتقل فى الاسكندرية أيام السلطان الملك الناصر حسن الذى أكحله(٤٧) . كذلك يؤكد لنا ابن شاهين الظاهرى أن بعض كبار الامراء قد فضلوا الاقامة بالقدس لكى يكونوا بعيدين عن مجريات الاحداث الساسية ولينعموا بالهدوء والاستقرار فى المدينة ، بل ان منهم من تفرغ للعبادة وعاش مجاورا بالقدس الشريف(٤٨) . هذا بالاضافة إلى ما يرويه كثير من المؤرخين المعاصرين من تفضيل الكثيرين من كبار الامراء الحياة فى مدينة بيت المقدس ، مثال ذلك ما حدث فى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م أيام السطان الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية ، فعندما قرر السلطان أن يتولى الامير شيخ الصفوى نيابة غزة فان « الامير شيخ سأل السلطان أن يعفيه من نيابة غزة وأن يقيم بالقدس فأجابه السلطان إلى سؤاله ورسم له بالضياع التى كانت مع قنقباى الاحمدى وهى نصف بيت لحم ونصف بيت جالة وتوجه إلى القدس ... »(٤٩) وكذلك ما يرويه لنا ابن طولون من أن نائب الشام اليحياوى فى عهد السلطان الاشرف قايتباى فى سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م كان مقيما بالقدس بطالا ثم أنعم عليه باعادته واستقراره فى نيابه الشام(٥٠) . وبهذا فضل كثير من الامراء الا قامة بالمدينة لينعموا بالهدوء .

٢ ــ القبائل العربية :

وهم الذين يرد اسمهم فى كثير من المصادر والمراجع تحت اسم « العشير » أو البدو أو « العرب » ويرجع استيطان القبائل العربية مدينة القدس والمناطق التابعة لها إلى بداية العهد الاسلامى ، كما يرجع أصلهم إلى ثلاث بطون ، كل منها ينتسب إلى قبيلة من القبائل الآتية :

ا ــ قبيلة بنى عمر : ويقال لها العمريون ، وهم بطن من بنى عدى ابن كعب ابن قريش من العدنانية ، وهم بنو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقد تفرع عنها فرقة بوادى بنى زيد وهو من

أعمال الرملة وهم بنوزيد . وكذلك وجدت منهم فرقة بمدينة بيت المقدس نفسها[٥١] والتى لها حى فى الجزء الشمالى من المدينة بالقرب من باب الأسباط ، ظل يحمل اسمهم حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، كما تشير المراجع إلى وجودهم أيضا فى عدة قرى تابعة لبيت المقدس فى القرن السادس عشر الميلادى[٥٢] .

ب ــ قبيلة بنى جرم : وهم من العرب القحطانية ، وقد تفرع عنهم كثير من البطون مثل بنو غانم والعبادلة ، والاحامدة ، عقبة بن جزام ، وبنو قدامة ، وبنو عوف ، وبنو فيض ، وقد سكن كثير من هذه القبائل مدينة القدس[٥٣] مثل بنو غانم الذين سكنوا المنطقة التى تعرف بوادى الطواحين من جهة الشرق ، ولهم بها حارة تسمى حارة الغوانمة وهى مجاورة للمسجد الأقصى من جهة الغرب[٥٤] .

ج ــ الجعافرة : وهم بطن من بنى الحسين السبط ، من بنى هاشم ، من العدنانية والجعافرة ينتسبون إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر وقد استوطنت فرقة منهم مدينة بيت المقدس[٥٥] . وتجب الاشارة إلى أن كل القبائل العربية كانت تتكاثر غالبا فى المناطق القريبة من الصحراء وبخاصة فى فصل الشتاء ، حيث تكثر المراعى ، إما فى فصل الصيف فإنهم يعيشون حول المرتفعات المحيطة بالمدينة ، هرباً من حرارة الصيف ولكثرة الاعشاب ووفرة المياة فى تلك المناطق[٥٦] .

أما عن حياة هؤلاء البدو فيصفها لنا الرحالة سير جون ماندیفيل الذى زار بيت المقدس عام ١٣٢٢م بقوله : انهم يعيشون فى خيام يصنعونها من جلود الحيوانات ، مثل جلود الجمال والحيوانات الاخرى ، وهم يعيشون فى المناطق التى يجدون بها المياه ، وهؤلاء البدو لا يزرعون الارض ، وقد لايؤدون أى عمل ، كما أنهم لا يأكلون الخبز الا إذا نزلوا احدى المدن ، فهم يشوون لحوم الحيوانات والاسماك على الصخور الساخنة على إشعة الشمس ، وهم رجال أقوياء ومحاربون اشداء ، بلغوا من كثرة العدد حد الا يحصى[٥٧] كذلك يصفهم لنا الأب سوريانو بقوله : وهم ينحدرون من العرب ، ويؤمنون أن اليوم المحدد لوفاة أى شخص منهم لن يتأخر ، ولهذا فهم لا يخشون الموت ، وهم يضعون غطاء للرأس ويلبسون جلبابا بدون قميص ، كما يشعرون بالخزى من حملهم الاقواس والنبال ، ولكنهم يستخدمون فقط الرماح والسيوف ، كما أنهم يعيشون متنقلين هنا وهناك على ما يقومون به من اغارات ، ويرعون الحيوانات من أجل لبنها ولحومها[٥٨] .

كما تجب الاشارة إلى أن هذه القبائل الضاربة فى المناطق المتاخمة لمدينة بيت المقدس ، كانت مصدرا للاضطرابات ومبعا للفتن ، ويبدو أن تلك الاضطرابات التى كانوا يقومون بها كانت وسيلة رزق يلجأوون إليها ، والدليل على ذلك ما يذكره لنا المقريزى فى حديثه عن سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٥م عندما انتشر الغلاء وارتفعت الاسعار فى المناطق المجاورة للقدس ، فقام هؤلاء البدو بغارات شديدة على مدينة بيت المقدس ذاتها ، وأحدثوا فيها من النهب والسلب شيئا كثيرا[٥٩] . كذلك ما يرويه لنا فابرى الذى زار بيت المقدس سنة ١٤٨٠م أنه عقب وصول الحجاج المسحيين إلى ميناء يافا ، فقد راعهم حضور عدد كبير من المماليك بأسلحتهم وخاصة أن الحجاج أتو عزلا من السلاح ، فكان

الرد عليهم بأن البدو قد أتوا إلى البلاد من الصحراء بأعداد كبيرة ، وأنهم نهبوا كل ماصادفهم ، وأنهم تجمعوا فى المناطق الجبلية المحيطة لمعرفتهم بقرب قدوم الحجاج المسحيين ، ولهذا فقد حضر الامراء ومعهم عساكرهم بأسلحتهم حتى يقوموا بحراستهم حتى وصولهم إلى بيت المقدس(٦٠) .

وتعددت الفتن التى كان يقوم بها هؤلاء العشير أو البدو فى بيت المقدس والمناطق المجاورة لها ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى سوء أحوالهم الاقتصادية ، والتى يؤكدها لنا الرحالة فابرى بأنه عندما تصدى المماليك لهؤلاء البدو والذين حاولوا الهجوم على ركب الحجاج عن طريق العنف ، فإنهم أخذوا يتوسلون إليهم أن يعطوهم شيئا يأكلونه أو يقتاتون به(٦١) . فضلا عن ضعف النواب أنفسهم واستعانتهم بهؤلاء فى الخلافات التى تنشأ من ذلك ما يرويه لنا مجير الدين سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م أيام الأشرف قايتباى أن نائب مدينة بيت المقدس ونائب مدينة غزة ، حدثت بينهما بعض الخلافات « فكان نائب غزة يسلط بعض العرب المفسدين ويغربهم على نائب القدس ويحرضهم على الفساد »(٦٢) . هذا إلى جانب ما جلب عليه هؤلاء العشير من عدم الخضوع للحكام . كما يلاحظ أيضا أنه إلى جانب الدوافع السابقة ، فقد كان هناك دافع سياسى وهو الغاء حكم المماليك واعادته إلى العرب الأحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد(٦٣) . ومن المؤكد أن البدو فى بيت المقدس قد تأثروا بثورات اخوانهم فى مصر شبه المستمرة والتى يلاحظها الباحثون طوال عصر المماليك .

وتجدر الاشارة إلى أنه بمرور الوقت حدث تغير فى حياة هؤلاء البدو ، لأننا نسمع من الرحالة الذين زاروا بيت المقدس أن هؤلاء البدو أصبحوا يقومون بخدمتهم وارشادهم وحمايتهم وتقديم المساعدات لهم نظير ما يحصلون عليه من مبالغ يدفعها هؤلاء لرؤسائهم(٦٤) كذلك من المؤكد أن بعض القبائل التى استوطنت بيت المقدس أخذت تتحول تدريجيا إلى شعب زراعى مستقر ، ولاسيما فى القرى المحيطة ببيت المقدس ، غير أنه ربما تمتع هؤلاء العرب بمركزا اجتماعى أعلا مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التى كانوا يؤدونها للدولة وقت الحرب ولاسيما فى الحروب الصليبية ، وفى الحروب الداخلية التى شنتها قوى المماليك فى الاطراف الشمالية لدولتهم ضد التركمان ، كما كان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ الامن والنظام فى المناطق التى سكنوها(٦٥) وخير دليل على التطور الذى طرأ على حياة بعض القبائل ما نشأ هذه من اختلاف نظم الضرائب التى كان يدفعها البدو ، فهناك بعض الجماعات التى كانت تدفع ضرائب على القمح وبعض المحاصيل الحقليه الأخرى بنفس الطريقة التى كانت متبعة فى القرى ، كما أننا نسمع عن تناقص اعداد هؤلاء البدو أواخر القرن السادس عشر الميلادى بشكل ملحوظ(٦٦) .

أما عن الالتزامات التى كانت مفروضة على هؤلاء البدو ، والتى يؤكدها لنا أبن شاهين بأن هؤلاء العرب كانوا يسجلون فى ديوان الجيش لمعرفة قبائلهم وأعدادهم ، والخدمات الحربية التى يمكن أن يقدموها للدولة ، وهى التجاريد والمهمات الشريفة « فالتجاريد تنقسم على نوعين نوع إلى الغزوات ونوع إلى المحاربين البغاة سواء كان فى ذلك السلطان بنفسه أو يعين من يختاره من جيشه

فيكونون على يرق واستعداد من الخيالة والرجالة والرماة بحيث أنهم إذا صاروا إلى العدو المخزول هزموه مع الفروع والاصول . وأما المهمات الشريفة فهى كلما طرت ضرورة لحراسة ثغر منن الثغور أو لشيء من الاطراف أو حفظ ما يقتضى حفظه أو ما يناسب ذلك »(٦٧) .

إما عن الالتزامات غير الحربية فيروى لنا المقريزى أن السلطان الظاهر بيبرس وهو المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك ، خلع على أمرائهم ، وضمنهم البلاد وألزمهم القيام بالعداد ، والعداد هى زكاة مفروضة للسطان سنويا على قطعان القبائل العربية والتركمانية والتى تقدر بالآلاف تؤخذ منهم كل سنة ، كما شرط عليهم خدمة البريد واحضار الخيل برسمه(٦٨) . ويبدو أن هذه الالتزامات لم تتغير طوال عصر سلاطين المماليك ، فهذا مجير الدين يحدثنا عنها ايام الاشراف قايتباى فى حديثه عن أمير عرب جرم بأنه لم يعد يصلح للامرية « لعجزه عن القيام بالقود وما هو عليه للخزائن الشريفة »(٦٩) ومن هذا يفهم أنه بالاضافة إلى ما كان يجب أن يحضره امراء العرب إلى السلطان من خيول وحيوانات كان عليهم دفع بعض الاموال سنويا

٣ ــ المغاربة :

ترجع هجرة المغاربة إلى الشرق بوجه عام إلى أيام الدولة الفاطمية ، فمن المعلوم أن الفاطميين قد اعتمدوا فى تأسيس دولتهم فى المغرب على قبائل البربر المتعربة ، وكان فى جيشهم فرق منهم ، ومن الطبيعى أن تنتقل جموع منهم إلى مصر أولا بانتقال الفاطميين إليها ، لذا يعد العصر الفاطمى مرحلة هامة فى تاريخ الهجرات المغربية إلى مصر ، حيث انتقلت موجات كبيرة من المغرب ، واستقرت فى الجانب الغربى لمصر ، فى غرب الدلتا ، والبحيرة والفيوم ، والواحات ، وسائر الجهة الغربية من صعيد مصر وربما اتجهت بعض قبائل المغرب شرقا ، كما فعلت قبيلة لواته فتجاوزت شرقا وعبرت منقطع الرمل ، وعلى هذا الاساس وبما أن بيت المقدس كانت قد خضعت للفاطميين فى مصر فمن المرجح أن تكون هجرات المغاربة ترجع إلى هذا العهد(٧٠) . ويرجع أن يكون عدد هؤلاء المغاربة فى بيت المقدس قد ازداد عقب فتح صلاح الدين الايوبى لها ، نظرا لما تمتع به هؤلاء المغاربة أولا فى مصر على أيامه ، فضلا عن أن عددا كبيرا منهم ربما فضل الاقامة بها عقب قضائهم مناسك الحج ، ولعله قد حدث لهم عند اقامتهم بها ما حدث لهم فى مصر وما يرويه لنا ابن جبير من أن السلطان صلاح الدين الايوبى قد « جعل احكامهم اليهم ، ولم يجعل بدا لاحد عليهم ، (٧١) » ومن المرجح أن هذا الوضع قد استمر فيما بينهم بالقدس ، حيث تؤكد بعض المراجع أن المغاربة فى بيت المقدس قد عاشوا فى شبة عزله عن غيرهم من الجماعات ، وكعنصر منفصل عن السكان المحليين ، كما كان لهم شيخ يسمى شيخ المغاربة والذى لم يكن مجرد لقب للتكريم أو لقب شرفى لهم كطائفة بل أكثر من هذا أنهم كانوا ينتمون إلى مذهب المالكية(٧٢) كما تشير بعض المراجع إلى أنه عقب وفاة صلاح الدين ، وفى أيام ابنه الافضل كانت لهم فى تلك المدينة حارة تنسب إليهم ويسكنونها ، ووقفها على اختلاف اجناسهم ، كما كانت لهم زواية تعرف باسمهم ، وشيخ يُسمى شيخ المغاربة أو متولى مشيخة المغاربة بالقدس(٧٣) . كما يروى أحد الباحثين أن الملك الافضل بن صلاح الدين قد بنى جامعا

للمغاربة بجوار مربط البراق وقرب باب النبى لدخوله عليه الصلاة والسلام منه يوم الاسراء ، ومن ذلك الوقت سماه المجاورون باب المغاربة[٧٤] الا أن ابن فضل الله العمرى يصحح لنا ما وقع فيه هذا الباحث من خطأ بأن هذا الجامع لم يكن سوى مكان خصص لصلاتهم داخل المسجد الأقصى ، ولهم فيه امام ويصلى فيه الصلوات الخمس لاغير ، وانما اطلق هذا الاسم « جامع المغاربة » لغلبة الاسم على الجمهور فقط[٧٥] .

هذا وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء مئات من رجال العلم والدين والادب الذين رحلوا من المغرب الى الشرق فى طلب العلم والتفقه ، وهذا كتاب « نفح الطيب » يشغل ذكر هؤلاء العلماء نحو ثلثه ، وفى بيت المقدس نجد أنهم كانوا يسمعون فى المسجد الأقصى هذا فضلا عن عدد من المدارس والزاويا ، وقد تولى كثير من المغاربة مناصب رفيعة فى المشرق بوجه عام وفى بيت المقدس بوجه خاص كالقضاء وغيره[٧٦] .

وتجب الاشارة الى أن أعداد المغاربة فى بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك ، من المرجح أنها قد ازدادت عما كانت عليه من قبل ، وذلك راجع الى تدفق اعداد كبيرة منهم لسبب الاحوال السياسية التى مرت بها بلدان المغرب العربى والاندلس فى تلك الفترة ، وترجع هجرة هذه الاعداد من المغاربة الى دولة سلاطين المماليك على أساس نظرة سكان المغرب والاندلس الى الدولة المملوكية فى ذلك العصر على أساس أن سلاطينها هم حماة الاسلام والمسلمين ، ويتضح ذلك من المراسلات التى كان يرسلها أهل مدن االاندلس والمغرب الى سلاطين مصر من المماليك يطلبون فيها النجدة[٧٧] .

ومما لاشك فيه أن الحروب التى شنها المسيحيون فى بلاد الاندلس ضد المسلمين وهى التى تسمى بحرب الاسترداد ، كان لها اكبر الأثر فى هجرة اعداد ضخمة من أهل الاندلس والمغرب على السواء الى الشرق ، وبخاصة بعد خضوع كثير من الثغور فى المغرب لنفوذ المسيحيين القادمين من قشتالة وأرغونة ، هذا الى جانب أن ظروف بلاد المغرب العربى ، وما ساد فيها من تفكك وضعف نتيجة لتفكك الاسرات الحاكمة وتصارعها ، كان من العوامل التى شجعت على الهجرة الى دولة سلاطين المماليك فى الشرق حيث الاستقرار[٧٨] .

وربما فضل كثير من هؤلاء المهاجرين الحياة فى بيت المقدس لغلبة الطابع الدينى عليها ، ولعل ما يتسر لاخوانهم المغاربة من رغد العيش والحياة الكريمة فيها كان عاملا مشجعا لجذبهم اليها فى تلك الفترة ، والحقيقة التى يجب أن نذكرها أن سلاطين المماليك فى مصر فى تلك الفترة لم يستطيعوا المساعدة بشكل مؤثر نظرا لانشغالهم بالاحوال السياسية المحيطة بهم من غارات الكتلان على السواحل والموانى المصرية والشامية ، فضلا عن ثورات التركمان فى شمال البلاد ، إلى جانب ما قام به ملوك الحبشة من محاولات للاشتراك فى المحاولات الصليبية مهددين سواحل بلاد الحجاز[٧٩] ، وبهذا نستطيع القول أن ما قامت به القوى المسيحية فى غرب أوربا من استرداد بلاد الاندلس ، ومهاجمتها موانى بلاد المغرب ، مع عدم استطاعة القوى الاسلامية الصمود لها ، كان من العوامل التى ساعدت

على هجرة اعداد كبيرة من المغرب والاندلس إلى بيت المقدس فى تلك الفترة من تاريخها ، وليس أدل على كثرة هؤلاء المغاربة فى القدس مما يذكره مجير الدين وهو معاصر لتلك الفترة عن كثير من علماء المغاربة الذين تولوا كثيرا من المناصب الهامة فى المدينة ، كان من أهمها القضاء ، ومشيخة زواية المغاربة بالقدس ، وامامة المالكية بالمسجد الاقصى ، ومشيخة القادرية ، وهى إحدى الطرق الصوفية بالقدس(٨٠) .

٤ ــ الأشراف :

يفهم مما رواه مجير الدين فى حديثه عن الأشراف أنه كان بالقدس ويظاهرها بوادى النسور الذى يبعد قليلا عن القدس ، عدد من السادة الاشراف الذين ينتسبون إلى نسل رسول الله ﷺ من نسل الحسين بن على رضى الله عنه ، وكانت لهم زواية يقيمون بها ، ويزورهم الناس للتبرك بهم ، ويبدو وأنه كان يتم اختيار واحد منهم بالوراثة ليلى رياسة هؤلاء الاشراف ، وكان هؤلاء الاشراف يحظون برعاية سلاطين المماليك ونوابهم ، من ذلك أنه قد وقف منجك نائب الشام عليهم قرية شرفات بالقدس ، كما استوطن عدد منهم مدينة بيت المقدس نفسها عندما ضاق بهم وادى النسور ، كذلك كان يطلق على هؤلاء الاشراف الذين سكنوا المدينة اسم البدرية « نسبة إلى السيد بدر بن محمد بن يوسف الذى ينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن ابى طالب والمتوفى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥١م .(٨١) . ويروى بعض الباحثين أن بالقدس منهم بعض الاسرات التى تنتمى إلى هؤلاء الاشراف حتى العصر الحديث ، مثل أسرة آل العلمى التى يرجع نسبها إلى الحسن السبط رضى الله عنه(٨٢) .

ومن المؤكد أن هؤلاء الاشراف لم يكن يميزهم عن غيرهم من سكان مدينة بيت المقدس شيء ، وبخاصة الملبس حتى عهد السلطان الاشراف شعبان بن حسين بن قلاوون ، ففى سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م رسم السلطان المذكور أن « الاشراف بالديار المصرية والبلاد الشامية كلهم يسمون عمائهم بعلامة خضراء بارزة ، الخاصة منهم والعامة اجلالا لحقهم وتعظيما لقدرهم ليقابلوا بالقبول والاقبال ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين ، فوقع ذلك ولبس الاشراف العلائم الخضر ، التى هى الان مستمرة على رؤسهم .. »(٨٣) – والدليل على أن هذه الميزة فى ملابسهم لم تكن موجودة من قبل قول ابن تغرى بردى « ولقد احدث شيئا كان الدهر محتاجا إليه ولا ألهم الله تعالى الملوك ذلك من قبل .. »(٨٤) .

هذا وتتضح لنا سياسة سلاطين المماليك الدينية من حرصهم على التقرب إلى هؤلاء السادة الاشراف ، وتقليدهم بعض المناصب الهامة فى مدينة بيت المقدس ، فيما يرويه لنا ابن الصيرفى فى حديثه عن سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١ أيام السلطان الظاهر برقوق فى سلطنته الثانية من أنه « خلع على السيد الشريف صدر الدين مرتضى بن غياث الدين ابراهيم بن صدر الدين حمزة الحسينى واستقر فى نظر القدس والخليل عليه الصلاة والسلام بعد وفاة قطلو بغا الطشقمرى » وكذلك تتضح لنا مكانة هؤلاء من خلال الألقاب التى أطلقت عليهم مثل « صدر الدين » و « غياث الدين »(٨٥) .

٥ ــ الهنود :

من بين الجماعات الاسلامية التى كانت تسكن مدينة بيت المقدس فى عصر سلاطين المماليك جماعة الهنود ، وكان هؤلاء الهنود يترددون على زاوية فى المدينة نسبت اليهم وسميت باسمهم أى زاوية الهنود(٨٦) . ويرى بعض الباحثين أن تأسيس زواية الهنود فى بيت المقدس يرجع إلى أواسط القرن السادس الهجرى ، والتى كانت تقع إلى جوار باب السامرة أحد ابواب المدينة ، وعلى بعد خطوات من سورها الشمالى ، وكانت أولا مخصصة لفقراء الطريقة الرفاعية ، ثم راح الهنود ينزلون فيها ، كما أن لهذه الزواية أملاك موقوفة عليها بباب حطة(٨٧) .

والدليل على وجود هؤلاء الهنود فى عصر سلاطين المماليك وحتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ما يرويه لنا مجير الدين فى حديثه عن « الشيخ الصالح عبد الله الهندى من الاولياء المشهورين توفى بالقدس الشريف ليلة الجمعة سابع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ... » ، هذا وان كانت المصادر التى بين أيدينا لم تذكر شيئا عنهم وعن اعدادهم ، مما يرجح أنهم كانوا قليلى العدد فى ذلك العصر(٨٨) .

٦ ــ الأكراد والتركمان :

يرجع وجود الاكراد فى بيت المقدس إلى عهد السلطان صلاح الدين الايوبى ، حيث يروى لنا ابو شامة أنه عقب فتح المدينة على يديه ، خلف الأمير سيف الدين على بن احمد الهكارى المعروف بالمشطوب « بالقدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن وإليه انما كان واليه عز الدين جردينك وتوفى المشطوب رحمه الله بالقدس يوم الاحد الثالث والعشرين من شوال ودفن فى داره بعد أن صلى عليه فى المسجد الاقصى »(٨٩) . والمعروف أن الهكارية طائفة من الاكراد ، وكان المشطوب هذا أحد أمرائهم ، وفى هذا دليل كاف على أن الاكراد سكنوا القدس منذ فتحها صلاح الدين ، وأنهم أقاموا بها كجنود للدفاع عنها .

هذا ولم ينقطع تدفق الاكراد على بيت المقدس طوال عصر سلاطين المماليك ، ويؤكد لنا مجير الدين ذلك فى حديثه عن بعض الاكراد الذين وفدوا اليها بأن منهم من « أقام بين القدس والخليل فى أرض اختارها وعنى بها وزرع فيها ... ورزق أولادا صالحين » كذلك كان منهم « من أهل الفضل ومن الفقهاء بالمدرسة الصلاحية ... »(٩٠) . كما تؤكد بعض المراجع أن الاكراد كانوا موجودين بيت المقدس حتى أواخر عصر سلاطين المماليك ، وانه كثيرا ما كانت تنشب بينهم الفتن وبين بعض القبائل العربية ، والتى نتج عنها مقتل كثير من رجال الفريقين(٩١) . وأنه كان للاكراد حى خاص بهم يسكنونه فى المدينة عاشوا فيه عيشة منفصلة عن غيرهم من السكان ولم يندمجوا معهم ، وظلوا محافظين على عاداتهم الموروثة فى أحيائهم الخاصة بهم ، كما أن سياسة سلاطين المماليك كانت تشجع على استيطان تلك العناصر المحاربة من الاكراد بهدف العمل على حماية السواحل الفلسطينية من أية

اغارات جديدة من الغرب الأوربى[٩٢] .

وما قيل عن الاكراد يمكن أن يقال عن التركمان ، من حيث سكناهم بيت المقدس فى أحد الاحياء الخاصة بهم ، وأن سلاطين المماليك حرصوا على الاستفادة منهم كعنصر محارب يمكن الاعتماد عليه فى الدفاع عن المدينة ، أو للدفاع عن المدن الساحلية الفلسطينية ، هذا وان كنا نرجح أن اعداد التركمان ربما كانت اقل من الاكراد لان المصادر التى بين أيدينا لم تشر إليهم سوى اشارات عابرة ، فهذا مجير الدين والذى اهتم بصفة خاصة بألتاريخ لبيت المقدس ، لم يورد سوى ذكر لعدد قليل من العلماء التركمان الذين عاشوا فى المدينة فى عصر سلاطين المماليك[٩٣] . ولسنا ندرى هل تأثر وضع هؤلاء التركمان بما حدث من اخوانهم فى شمال بلاد الشام ، وقيام بعض قبائلهم بكثير من الفتن والثورات ضد حكم المماليك ، وإلى أى الفريقين انحازوا ، وهل نظر لهم السلاطين على أنهم مجرد رعايا لهم ولم يسيئوا لهم .

(ب) القطاع المسيحى :

بما أن مدينة بيت المقدس تعتبر مقدسة عند المسيحيين بقدر ما هى مقدسة عند المسلمين ، فإننا نجد بها طوال عصر المماليك العديد من المذاهب الدينية المسيحية المختلفة ، والحقيقة أنه لم ترد سوى إشارة واحدة – عند احد الرحالة الذين زاروها أواخر القرن الخامس عشر – عن عدد المسيحيين بها والذي يقدرهم بأكثر من ألف من كل المذاهب الدينية المسيحية المختلفة ، الا أننا نشك فى صحة هذا التقدير[٩٤] اذ تذكر لنا بعض المراجع أن عدد المسيحيين الذين كانوا فى بيت المقدس عند فتح صلاح الدين الايوبى لها كان اكثر من عشرين الف كما سبقت الاشارة والمعروف « أنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يزعجوا ويؤمنوا ولا يخرجوا ... »[٩٥] كذلك يؤكد لنا ابن الاثير انهم طلبوا من السلطان صلاح الدين « أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية ، فأجابهم إلى ذلك .. »[٩٦] .

كذلك من المرجح أن تكون اعداد هؤلاء المسيحيين قد ازدادات عقب الفتح الصلاحى للمدينة ، ذلك أن هذا الفتح أعاد للمسيحيين ذلك النوع من الحكم الذاتى عن طريق توليهم شئونهم الداخلية فيما بينهم ، ومنحهم السيطرة على كنائسهم وشئونهم الدينية ، تلك السيطرة التى افتقدوها أيام الحكم الصليبى ، حيث سلبهم الصليبيون ، ما نسميه بالحكم الذاتى[٩٧] . هذا بالاضافة إلى أن المسيحيين المحليين كانوا يشكلون أغلبية سكان القرى المحيطة بالقدس مثل بيت لحم وبيت جالا وغيرها وهى تابعة لمدينة بيت المقدس فى ذلك العصر[٩٨] كما كانوا يشكلون الاكثرية المطلقة لبعض ضواحى المدينة ، مثل جبل صهيون فهو كما يصفه لنا فيلكس فابرى ... سكن المسيحين فقط وليس به مسلم أو يهودى[٩٩] .

ومهما قيل عن انتشار الأوبئة والأمراض المعدية ونكبات الطبيعة ، فضلا عما تعرض له المسيحيون المحليون فى بيت المقدس أثناء غزو الخوارزميه لاستعادة بيت المقدس من الصليبيين فى عهد

خلفاء بنى أيوب ، فان كل هذه العوامل لم تكن لتؤثر فى اعدادهم بهذه الصورة التى يحدثنا عنها فليكس فابرى ، كما أننا لم نسمع طوال عصر سلاطين المماليك ، عن حدوث هجرات للمسيحيين المحليين من القدس سواء فى المصادر العربية أم الاجنبية ، اذا المعروف أن بيت المقدس كانت وستظل مهوى أفئدة المسيحيين فى كل مكان وزمان .

والجدول التالى يبين لنا أهم الطوائف المسيحية بالقدس والمؤسسات الدينية التى كانت تمتلكها فى ذلك العصر .

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
أولاً : الأرثوذكس ١) الروم الأثورذكس	عاشت جماعة الروم الأثوذكس فى القدس منذ العصور المسيحية الاولى ، وكان لها المكانة الرئيسية فى كنيسة القبر المقدس باستثناء فترة الحكم الصليبى للمدينة ، ومن أديرتهم وكنائسهم بها : ١) ولهم ديرابينا ابراهيم ، ويقع فى ساحة كنيسة القيامة . ٢) ولهم فى نفس المكان كنيستان : احداهما صغيرة وتسمى « أبينا ابراهيم » والاخرى تكبر عنها وتسمى « الرسل الاثنى عشر » . ٣) دير مار يوحنا المعمدان . ٤) كنيسة العذراء مريم ، فى وادى القدرون كما يسمونها ديرستنا مريم . ٥) دير مار سابا أقامه القديس سابا حوالى عام ٤٨٤م . ٦) دير العذراء ، أقيم عام ٤٩٤م ، ويقع جنوبى كنيسة القيامة . ٧) دير القديس ثيؤد وسيوس ما بين بيت لحم ومارسابا . ٨) دير المصلبة ، ويقع غربى القدس . ٩) دير البنات – بنى فى أواخر القرن الخامس وبه كنيستان . ١٠) دير مار الياس ، أقيم سنة ٦١٠م	

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
	وهو يقع على طريق بيت لحم وأعيد بناؤه عام ١١٦٥م .	
	١١) دير الجليل ، وهو يقع فوق جبل الطور .	عن هذه الكنائس والاديرة راجع :
	١٢) دير القطمون ، ويقع غربى القدس ، فى حى القطمون ، كان بيد الكرج ثم صار إلى الروم الارثوذكس ، وفيه كنيسه وفى داخل الكنيسة قبر القديس سمعان ، وكانوا يسمونه دير سمعان .	عارف العارف : تاريخ القدس ، ص ٢٣٩ ـــ ٢٤٢ ؛ عبد الحويد زايد : القدس الخالدة ، ص ٢٥٨ ـــ ٢٥٩ ؛ ourians: Op. Cit. P. 391. Felix Fabri The Book Of the Wandering Vol 1., P. 933. Muyry: Syria and Palestine Vol 1, P. 23.
	١٣) الدير الكبير ، ويعرف بدير قسطنطين « وفيه ثلاث كنائس وهى كنيسة القديسة هيلانه ، وكنيسة القديسة تقلا ، وكنيسة مار يعقوب .	
	وهناك أديرة صغيرة نذكر منها :	
	١٤) دير حبس المسيح ، على طريق الآلام .	
	١٥) دير مارخر الامبوس بالقرب من الخانقاه الصلاحية من الجهة الشرقية .	
	١٦) دير مار أفتيموس وهو ملاصق لدير السيدة من الشمال .	
	١٧) دير العدس ويسمونه دير مار نيكوديمس فوق حبس المسيح فى حارة السعدية .	
	١٨) دير صهيون ، فوق جبل صهيون .	
	١٩) دير مار جرجس وهو ملاصق لدير اللاتين من الشرق .	
	٢٠) دير مار ميخائيل .	
	٢١) دير مار ديمترى فى حارة	

اسم الطائفة	بيان بالمنشآت الدينية الخاصة بها	المصدر أو المرجع
	النصارى . ٢٢) دير مار تادرس .	
٢) السريان	جاءوا إلى القدس فى القرن الاول الميلادى ومن ممتلكاتهم بها : ١) كان لهم مكان فى كنيسة القيامة ، ودير ينسب لهم باسم دير السريان . ٢) كما كان لهم ابرشية مركزها بيت المقدس . ٣) دير مار مرقس ، ويقع بين حارة الارمن وحارة اليهود . ٤) دير القدس . ٥) دير مار توما فى الشارع المؤدى إلى حى النبى داود . ٦) معبد صغير فى كنيسة القيامة باسم يوسف ونيقود يموس . ٧) معبد فى الكنيسة المعروفة باسم ستنا مريم ٨) معبد على جبل الزيتون .	راجع عن ممتلكاتهم : مجير الدين : الأنس الجليل ، جـ٢ ، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ ؛ عارف العارف : نفس المرجع ، ص ٥٥ عبد الحميد زايد : القدس الخالد ص ٢٦٠ Suriano: Op: Cit. P. 391 Newett. Casla,s P bgrims P; 276.
	أما السريان الكاثوليك فيبدو أنهم لم ينزلوا القدس فى هذه الفترة نظرا لعدم وجود اماكن دينية لهم الا فى القرن التاسع عشر الميلادى .	عن ذلك راجع : عارف العارف ، نفس المرجع ، ص ٢٥٦ .
٣) الأرمن	١) لهم دير فى بيت المقدس يعرف بدير الارمن ٢) دير مار يعقوب ويسمونه دير القديس جيمس الكبير وهو قديم البناء وتم تجديده أواسط القرن الثانى عشر الميلادى . ٣) دير الزيتون . ٤) دير حبس المسيح . ٥) ولهم كنيسة الجلجلة – الثانية وهى	راجع : مجير الدين ، نفس المصد جـ٢ ، ص ٤٠١ ؛ عارف : تاريخ القدس ص ٢٥١ ؛ رشاد الإمام مدينة القدس ، ص ١٢٤ .